١١٩

روايات

UNITED MEDIA SERVICES

www.liilas.com

شمعة تحت المطر

Aml

روايات أحلام

شمعة تحت المطر

كان هناك سحر مخيف في تشاد غرايزر يجذب ناتالي كونراد فتاة الريف الساذجة، لم تستطع مقاومته... وكان هناك بالمقابل كراهية واحتقار جارفين في نفس تشاد تجاهها، سببهما الظاهر علاقتها المشبوهة مع خاله، ولم تكن ناتالي مستعدة للتخلي عن هذه العلاقة بأي ثمن...

وهكذا كان التوتر بينهما يزداد كلما التقيا، حتى اتخذت مشاعرهما مساراً مجنوناً لم تستطع ناتالي أن تتصوره أو تتحمله!...

www.rulas.com/vb3

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل. الإمارات ٦ د. مصر ٤ ج. ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س. قطر ٦ ر. المغرب ١٥ د. اليمن
الأردن ١ د. البحرين ٦٠٠ ف. تونس ١,٥ د. السودان
الكويت ٥٠٠ ف. السعودية ١٠ ر. عمان ٦٠٠ ب. العراق

www.liilas.com
Aml

١ ـ فتاة سيئة السمعة

.. كانت أوكلاند، أكبر مدن نيوزيلندا، كشفاً مثيراً بالنسبة لناتالي بعد أن اعتادت العيش في قرية صغيرة على الساحل الغربي من «ساوث ايلند».

تمكنت ناتالي كونراد بعد شهر من النوم ليلاً دون أن تنزعج للأصوات غير المألوفة وازدحام السير.. لكن، مع أنها كانت تتعلم تقدير هذه المدينة الصاخبة، فهي لا تزال تشتاق إلى بلدتها ولهدوئها الآمن.

كانت تشتاق إلى أمها وخاصة لأخويها من أمها: الصغيرين ريكي وأندرو.. في الثالثة عشرة والحادية عشرة، فغالباً ما كانت أصواتهما المرتفعة، توتّر أعصابها.. أما الآن فهي تتمنى سماعهما يعذبانها ولو مرة أخرى.. ومع أنها لم تفهم يوماً الرجل الضخم المتحفظ، زوج أمها، إلا أنها تشتاق إليه كذلك.. فقد يكون ديسموند رجلاً متصلباً، وغير مرنٍ، إلا أنه كان عزيزاً عليها.

لم تشعر يوماً في حياتها أنها وحيدة.. وهذا الإحساس الآن يعصر قلبها.. فما من قاسمٍ مشترك مع الفتيات الأخريات في النزل.. جميعهن قادمات من ضواحي ريفية، إلا أن معظمهن من أماكن قريبة جداً من أوكلند. كن يبدين في عيني ناتالي السوداوين

الكبيرتين محنكات، لا يتكلمن سوى عن الأصدقاء، وعلاقات الغرام، وآخر الموضة.. كن لطيفات، لكن مشغولات!

كان الأمر في العمل مماثلاً كثيراً.. فهي الصغيرة الوحيدة والعزباء.. لم يكن لزميلاتها الخيّاطات أي اهتمام سوى التركيز على عائلاتهن.

كانت تفتقد إلى وطنها ويشدها الحنين إليه أكثر فأكثر، لذا كانت تحاول جاهدة التمسّك بالصبر والسلوان، وتنتظر أوقات الغداء لتسلّي نفسها فتتناول سندويشاتها في آخر الشارع مع صديقها الوحيد في أوكلاند.

كانت الفتيات في النزل ساخطات دائماً على السيد ويستر.. فقد كان رجلاً بكل ما في الكلمة من معنى، لكنه يكبرها بأربعين سنة وهو ليس بالعمر الذي يثير اهتمامهن.. لكن ناتالي كانت قد أدركت أنه كذلك. فقد كان وحيداً يبتسم لها ابتسامة خجولة ثم تحول تعارفهما من الابتسام إلى الكلام.. ومن ثم إلى حديث طويل.. ثم تقدمت معرفتهما إلى نوع من الصداقة.. وكانت ناتالي تتشوق إلى وقت الغداء لأنه كان محدثاً لبقاً يثير الاهتمام، ويعاملها بكياسة وبالطريقة التي تحبها وتفضلها.

وكان ينتظرها اليوم، يرتدي بذلة من الواضح أنها لبست جديدة، لكنها تحمل طابع الخياط الجيد. قال واقفاً على قدميه حين تقدمت نحوه:

ـ كم تبدين جميلة، كالربيع في هذا اليوم الخريفي.

ابتسمت بخجل والتمع عمق عينيها بشرارات ذهبية:

ـ شكراً لك، وأنت تبدو وسيماً جداً.

انتظر إلى أن جلست قبل أن يجلس بدوره،

ـ أوه.. سأضطر للذهاب إلى البلدة فيما بعد.. أخبريني، هل استقريت هنا تماماً؟ يبدو أنك تفقدين تلك النظرة الكئيبة التي سبق أن لاحظتها في أول مرة رأيتك فيها.

ـ أوه.. بدأت أعتاد على الحياة هنا.

فتحت علبة الغداء بحركات مرتبة، تنظر إلى محتوياتها بازدراء.. كان النزل يؤمن غذاءً معلباً كل يوم.. لكنه مصنوع بقلة ذوق مذهلة.

ـ هل أنت أكثر سعادة؟ أما عدتِ مشتاقة إلى موطنك؟

ابتسمت له:

ـ بلى، مع أن الفتيات في النزل لا زلن يعتبرنني الريفية الخرقاء.. لكنهن لطيفات جداً معي.

ـ ما الذي جعلك تقررين المجيء إلى أوكلاند؟

رفعت كتفيها النحيلتين وأردفت:

ـ لم أكن أملك شيئاً يبلدني، حين تركت المدرسة وجد لي زوج أمي عملا في مكتب للمحاسبة، وكنت محظوظة لهذا.

ـ كنت محاسباً من قبل، أتعرفين هذا؟ ألم يعجبك العمل؟

ـ لا.. أردت أن أقوم بعمل يدوي.. ولطالما كنت أخيط وأطرز. كان زوج أمي يظن أنها مجرد هواية صغيرة، وأعتقد أنها هكذا، لكنها الشيء الوحيد الذي أملكه، وأردت استخدامه.. أحسست أنني إذا لم أبتعد، فسأنتهي إلى لا شيء.. لا تفهمني بشكل خاطئ.. بلدتي مكان رائع للسكن فيها، لكنني أردت أن أرى ما إذا كنت أستطيع.. كان عليّ الابتعاد ويكاد هذا يخنقني.

أدهشتها اللهفة المفاجئة في صوتها كما أدهشته.. وقالت بخجل:

ـ آسفة.. لطالما لامني زوج أمي على أحلامي.. لكنني أحسست فعلاً أنني بحاجة لمغادرة بلدتي.

ـ لا تعتذري.. فأنا مندهش قليلاً لأنني وجدت هذا الإحساس المتوقد خلف ملامح وجهك الهادىء..

قالت بخشونة: أحاول السيطرة عليه قدر الإمكان..

ـ وتنجحين بإعجاب.. لكن لماذا أوكلند؟ إنها بعيدة جداً عن موطنك..

هزت رأسها ولمعت أشعة الشمس على خصلاتها السوداء:

ـ اقترحت أمي عليّ هذا، مع أن زوجها أبدى الرعب للفكرة وهو شخص عزيز وطيّب، لكنه من الطراز المتحفظ جداً.. لكن أمي أقنعته بأن أوكلاند هي المكان المنطقي للوصول إلى هدفي.. ولقد جاءت معي، ورتبت لي أمر الوظيفة لأعمل كخياطة في محلات دوغلاس، ووجدت لي النزل لأسكن فيه.

ـ وكيف تستطيعين خياطة الستائر والوسائد والتنجيد في محلات للديكور الداخلي؟

ـ إنها مجرد وسيلة لكسب العيش، وأنا أتعلم كثيراً.

ـ وماذا تحبين فعلاً أن تفعلي ناتالي؟

ـ أحب أن أصنع أشياء جميلة.. فمنذ أن عملت في محلات دوغلاس وأنا أرى الكثير من الأشياء الجميلة: مفارش طاولات، مناديل، مفارش للأسرة وأغطية، وسائد.. وأشياء كهذه.. وأرغب في أن أقدمها بدوري لمحلات الديكور أمثال دوغلاس.. وهي من

الأشياء المميزة التي أستطيع صنعها.. وسوف أفعل يوماً ما..

شجعها بصوت منخفض: جيد.. وهل هذا مربح؟

استدارت إليه متهللة لهفة:

ـ أوه.. أجل، لا تهتم النساء سوى بالأشياء التي تسترعي اهتمامهن بطريقة ملفتة جداً بغضّ النظر عن صانعها، وهن يدفعن الكثير شرط أن تكون السلعة جميلة ومميزة عن غيرها.

ارتجف صوتها الجميل قليلاً وهي تشرح له عن الزبونات اللواتي يستخدمن المحل لمجرد إملاء وقت الفراغ، ثرثارات، يشترين كل ما يستهويهن بغض النظر عن ثمنه أو نوعيته.

وتراقصت أشعة الشمس على رأسها الصغير، الكثيف الشعر، لتُضفي لوناً ذهبياً على بشرتها السمراء الفاتحة.. وجهها غير اعتيادي، وهو صغيرٌ بشكل غريب لفتاة قد تجاوزت عيد ميلادها الثاني والعشرين..

كانت تسخر ممن يدعوها بالجميلة لأنها ليست كذلك وتضحك ممن يقول لها إنها تسرّ العين.. إنما في الواقع لم يكن صوتها عادياً.. كان عميقاً، ومن المبهج جداً الاستماع إليه، وكانت محظوظة بامتلاك عذوبة ونشاط تعجبان كل من ينظر إليها بعمقٍ.. بوجه عام، كانت حيويتها، وجرأتها، صورة مذهلة!

ابتسم دانيال ويستر حين أنهت كلامها، وكأن بابتسامته مرارة ساخرة:

ـ أعرف هذه الأصناف.. نساء كهؤلاء يجعلن ريك دوغلاس سعيداً.. آه، ها قد وصلت وسيلة إيصالي إلى البلد..

كانت وسيلة إيصاله رجلاً طويل القامة، يتحرك بخطوات

رشيقة سريعة فوق العشب.. رفعت ناتالي رأسها، تبهرها الشمس، لتنظر إلى وجهه وكأنه قُد من حجر.. كانت القسمات البارزة بشكل خشن، أقل تأثيراً من عينين لامعتين شديدتي الزرقة، وفم رفيع، مستقيم قاسٍ، ترتسم ملامح السلطة عليه، حتى أن ناتالي أحست بالخوف.

ارتفع ذقنها دون وعي منها، وقابلت التساؤل في نظرته بوقار ألزمها كل التركيز على قونها لتحافظ عليه.

حياه السيد ويبستر بحبور:

ـ آه تشاد.. مبكر كعادتك.. ناتالي، هذا ابن أختي تشاد غرايزر.. تشاد، لقد سمعت بناتالي كونراد التي تتلطف دائماً بأن تمضي معي بعضاً من أوقات راحتها.

لم ترغب ناتالي لسبب ما في مصافحة تشاد غرايزر. لكنها بالطبع مضطرة، ولو أن لمسة أصابعه السمراء القوية حول أصابعها أرسلت قشعريرة في جسدها.

قال بوقارٍ متحفظٍ:

ـ آنسة كونراد.. أتعملين قريباً من هنا؟

كان يتكلم بحد قاطعٍ مما زاد من صحة انطباعها الأول عنه أنه رجل خطير.. واقشعرّ جسدها مجدداً، فسحبت يدها من يده.. إنه يحاول التأثير عليها، يعرف ما يفعل، ويرغب أن تعرف هي كذلك.

أجابت: أجل.. وأنت سيد غرايزر؟

لمعت عيناه الشديدتا الحدة من بين رموشٍ كثيفةٍ تغطيهما.. وقال بنعومة:

ـ لا.. مكتبي في المدينة.

كان يرتدي بذلة سوداء أنيقة التفصيل، كلّفت على الأرجح أكثر مما يصرفه زوج أمها على ملابسه في عشر سنوات..

كادت تهتز إجفالاً وهو يمرر عينيه عليها في تقييم شامل، قبل أن يصرف النظر عنها مع تصاعد اللون القاتم إلى بشرتها، استدار إلى خاله يقول:

ـ أخشى أن يكون هذا وقت ذهابنا.. فأنت لا ترغب في أن يفوتك موعدك.

رد العجوز بحبور:

ـ آه.. يُبقي الأطباء المرء منتظراً كعادتهم! على أي حال أعتقد أنه من الأفضل أن نذهب.. وداعاً ناتالي.

ـ وداعاً سيد ويبستر.. وداعاً سيد غرايزر.

بدا متعجباً من مخاطبتها له، ورفع حاجبيه السوداوين ليرد عليها: وداعاً.. ناتالي.

أبرز بهذا، بدون لطف، الفارق الاجتماعي بينهما. ونظر خاله بحدة إليه وكأنه يمرر ابتسامة اعتذار نحوها، ولم يفعل أي شيء ليرد، حينما قاده ابن أخته بعيداً. كان يقوده بسرعة قدر استطاعته، وكأنما وجود ناتالي قد يصيبه بالتلويث.

أحست ناتالي بموجة إذلال ساخطة.. أخفت وراء هذا الإحساس شعوراً بالغضب والكبرياء.. من يظن السيد تشاد غرايزر نفسه؟ لقد تعمد جرحها لتحس بأنها أقل شأناً، وقد نجح في مسعاه.. وهذا ما يفعله المال والمركز لأشخاصٍ مثله: عجرفة اصطناعية وتعصب متكبرٍ، وكأنه أكبر منها بكثير.. إنه لا يزيدها

بأكثر من عشر سنوات، لكنه نجح تماماً في إظهار حجم الهوة بينهما والتي لا يمكن ردمها.

بقيت على المقعد الخشبي الطويل، عيناها ثابتتان على الرجلين وهما يبتعدان حيث تنتظرهما سيارة فخمة، بدت كبيرة قوية.. وباهظة الثمن.

رقّت استدارة فم ناتالي اللطيفة.. ثم استرخت. فمن الغباء ترك هذا الرجل يكدرها.

وجدت نفسها لدهشتها تقسم بأن تشاد غرايزر سوف ينظر إليها يوماً، ولن يجد ما يدعوه إلى رفع حاجبيه بازدراء..

مندهشة للشراسة التي أقسمت فيها للقدر بوعدها، فتتت كسرة خبز في يدها وقدمتها إلى عصافير الدوري الجريئة قبل أن تقف.

لم يظهر السيد ويبستر في اليوم التالي، ولا الذي يليه. ومر أسبوع دون أن يأتي، وبدا أنه خلال هذا الأسبوع قد انكمش، وأصبح متعباً وأكبر سناً.. ولم تحاول ناتالي إخفاء سعادتها لرؤيته.. فابتسمت له بدفء جعل ابتسامته ابتسامة دهشة.. وتلفظ بجملته المعتادة:

ـ كم تبدين ساحرة.

ضحكت ناتالي، فثيابها جميلة وبسيطة، لكنها بعيدة عن أي طراز محدد.

ـ شكراً لك.. أواثق أنت بأن الطقس هذا لن يؤثر عليك؟ أجد صعوبة في أن أصدق بأن الشتاء على وشك الوصول.. لا زال الطقس دافئاً، والأيام جميلة صافية.

ـ آه.. إنه الخريف.. هل تناولت غداءك؟

ـ لا.. سأتناوله الآن.. أكاد أموت جوعاً.

أخذ يتكلم بسهولة وخفة وهي تزيل الأوراق عن سندويشاتها، يشرح عما يحدث في المدينة.. واضح أنه يعرف الكثير من الناس الذين يتكلم عنهم ولم تفكر ناتالي يوماً بخلفيات حياته، بل تقبلته كزميلٍ لها في معاناة الوحدة.. لكن ثراء تشاد غرايزر الواضح جعلها تتساءل لماذا يتنازل العجوز إلى الحديث مع فتاة التقاها على مقعد في حديقة عامة.

وقال ملاحظاً: تبدين مفكرة.

مسحت أصابعها في منديل ورقي.

ـ كنت أتساءل كيف كان موعدك مع الطبيب.

ابتسم:

ـ أوه.. هذا.. مجرد فحص روتيني.. وكما توقعت كان عليّ أن أنتظر.. تشاد رجل نافد الصبر.. إنه ليس ابن أختي في الواقع، بل ابن أخت زوجتي الراحلة. وهذا ما يجعله يحس أنه قادر على إعطاء الأوامر لي.

ـ يبدو متغطرساً قليلاً.

ضحك:

ـ أجل.. أخلاقه منفرة.. حاله كحال جميع المحامين يرتاب دائماً بالدوافع والأفعال.

ـ لاحظت هذا.

ـ لكنه لامع الذكاء.. ومن الصعب جداً خداعه. كان ليصبح محامياً لامعاً وكاد أن ينجح في الجنايات، لكنه فضّل إدارة أموال

وأسهم عائلته.. وهم زمرة ثرية جداً.. «عائلة غرايزر». ويهتم نشاد بهم وبكل شيء: الأسهم، الحصص، عدة مؤسسات كبيرة، ومزارع. أوه.. مجموعة كبيرة من الأعمال.. إنه رجل صلب لكنه أهل للثقة، له من رجاحة العقل ما يجعلنا نحس بقلة الراحة معه.

جلس صامتاً يفكر قليلاً قبل أن يكمل:

ـ لكن لا داعي أن تقلقي بالك به وبطريقته المتعجرفة، جئت أسألك ما إذا كنت ترغبين في تناول العشاء معي مساء الغد.

فغر الذهول فمها وعينيها، وقال ضاحكاً:

ـ لا.. أنا لست عجوزاً قذراً.. أعدك. لكنني أحمل عبئاً منذ سنوات، وأظنك قادرة على مساعدتي به.

أحست بالفضول طبعاً فهي ساذجة في كثير من الأمور.. لكنها وثقت به غريزياً، ولم يخطر ببالها أن الآخرين قد يستنتجون استنتاجاً خاطئاً عن موعد عشائهما. ولا حتى حين أوصلها التاكسي الذي أرسله إلى أحد المنازل الفاخرة، في ضاحية فخمة من المدينة.

كان العشاء فاخر التحضير.. وقد تمتعت ناتالي به.. جلسا معاً بعد العشاء يرتشفان القهوة أمام نار المدفئة.

نظرت ناتالي حولها في الغرفة.. في الخارج، كانت قد ثارت رياح خفيفة. كانت الغرفة جميلة ودافئة.. وابتسمت لمضيفها.

وضع فنجان قهوته من يده بحركة حادة:

ـ أخبريني عن اسمك.. إنه جميل جداً..

ضحكت:

ـ اسمي الأصلي ناتاليا، وهو اسم جدة أبي. وأرادني أن أحمله لأنه كان يحبها جداً.

حدّقت باللهب المتوقد بتعابير حزينة:

ـ أعتقد أن أمي قد أحبت أبي كثيراً لأنها كانت تتألم حين تحدثني عنه.. وبعد فترة من الوقت لم أعد أسأل. لكنني أعرف أن طفولته كانت تعيسة، وكانت جدته لطيفة جداً وتحبه كثيراً. لقد مات قبل أن أولد.

ـ حقاً؟

كان في صوته رنة غريبة لفتت انتباهها.. لكنه لم يكن ينظر إليها:

ـ كانت جدتي تحمل اسم ناتالي أيضاً.. وكان لها عينان قاتمتان كعينيك، لدرجة لا يعرف المرء أكانتا سوداوان أم بنيتان.. وكان في عينيها شظايا ذهبية مثلك تماماً.. وحين كانت تغضب تتحرك الشظايا وكأنها ألسنة لهب.

توقفت أنفاس ناتالي في حلقها، ليصدر منها صوت غريب، جعله يرفع نظره إليه، وشيء ما كالتوسل في عينيه:

ـ ماذا؟ لا يمكنني، لا يمكن..

لم يتقبل دماغها ما كان يحاول الإيحاء به إليها.. لكنه بادرها قائلاً بتحفظ:

ـ لقد كتبت لي أمك حين كانت في أوكلند.. لم تستطع دفع نفسها للاعتراف لك.. مع أنني واثق أنها لم تكن تحتاج إلى أن تقلق.. فأنت لن تكرهيها بسبب ما فعلت.

ـ أمي.. وأنت؟

هذا كثيرٌ.. انفجرت باكيةً وأخذت ترتجف خصلها السوداء وهي محنية الرأس فوق وسادة الصوفا. تركها تبكي لبعض الوقت.. لكن حين لم تبدِ دموعها دلائل على التوقف، تقدم إليها ليقول بهدوء:

ـ هس عزيزتي.. ستسببين صداعاً لنفسك لو استمريت في البكاء أكثر.

تقبلت المنديل وبدأت تجفف دموعها، وجعلها ترتشف المزيد من القهوة الساخنة، ثم أمسك يدها وسألها:

ـ هل لي أن أخبرك كيف حدث هذا؟ إذا أردت بعد ذلك العودة إلى المنزل، سأستدعي تاكسياً ولن تريني مرة أخرى. وأرجو أن أجد في طيات قلبك مكاناً للغفران.

كانت قصة عادية.. قصة رجل أرمل مع ولدين يجد نفسه مكبلاً بهما، وسكرتيرة شابة وفاتنة قادمة من مدينة أخرى.. جمعتهما الوحدة دون إرادة، وبدافع من حاجتهما المتبادلة للمؤاساة.. تزوجا سراً..

ـ حين أخبرتني أنها حامل، عرضت أن أخبر أهلي.. لكن ثيوليت، أمك رفضت، فقد كانت تعرف أن الزواج بيننا غير متكافىء، ولن ينجح.. تركتني فجأة وغادرت إلى ويلنغتون، إلى صديقة لها هناك.. بالطبع توليت إعالتها.. حين أنجبتك، كتبت لي أنك جميلة، سوداء العينين والشعر، تملكين بشرة سمراء كالزيتون.. فطلبت منها أن تسميك ناتاليا..

هزت ناتالي رأسها.. تبتلع ريقها بصعوبة.. وركزت عينيها

الموروثتين عن جدتها عليه وهو يكمل:

ـ كما قالت لك أمك.. كانت طفولتي تعيسة متجهمة.. وكانت جدتي هي لمسة الإشراق الوحيد فيها.. حين تزوجت أول مرة، كان زواج مصلحة، دون حب.. أردت تسمية ابنتي على اسم جدتي، لكن زوجتي رفضت بعناد، لأنها وجدت الاسم غير لائق. وسمت ولدينا آنا وريتشارد. وأنا سعيد لهذا الآن، فابنتها تشبهها.. لكن أنت.. أنت جدتي، وقد تجسدت مجدداً.. كانت سليلة أسرة اسبانية عريقة.. وكان جسمها صغيراً مثلك ولها نفس الضحكة الدافئة، والصوت الجميل..

ـ أنا.. مسرورة لهذا..

نظر إليها بمزيج من اللهفة والندم:

ـ حقاً ناتالي؟ أرجو هذا.. وأدرك تماماً الصدمة التي أحسست بها الآن.

ـ لماذا لم تقل لي أمي إنك لا زلت حياً؟ لطالما تساءلت كيف كان شكل أبي.. أعتقد أنني أعرف الآن سبب ادعائها أنها أرملة، لكنني أتمنى لو كنت أعرف الحقيقة.. كل ما قالته عنك هو إنك.. كنت لطيفاً وذكياً.

ابتسم بسخرية، وامتلأت عيناه بالحزن:

ـ وهي كذلك كانت لطيفة.

ساد صمتٌ مثقل بالذكريات، إلى أن سألت ناتالي:

ـ وهل بقيتما على اتصال؟

ـ لا.. فما إن بلغتِ سن الدراسة حتى رحلت إلى «ساوث آيلند» رافضة أن أعيلكما أكثر.. كتبت لي قبل رحيلها تقول إنه

من الأفضل للجميع أن تتوقف العلاقة عند هذا. . وطلبت أن أطلقها. كانت حياتي في ذلك الوقت تمر في فترة مضطربة. . وأخشى أن أكون أحسست بالارتياح لهذا. . لسنوات طويلة نسيت وجودكما، ولو ليس تماماً.

ابتلعت ناتالي ريقها بصعوبة ونظرت إليه، بعينين مبللتين:

ـ أتمنى لو كنت أعرف. . لكان الأمرُ رائعاً.

أطرق يقول ببساطة: أنا آسف.

هزت برأسها:

ـ لا. . لا تكن آسفاً. . لقد كان لي طفولة سعيدة. . لكنني فقط كنت أتساءل عن أبي.

ـ حسناً. . أصبحت الآن تعرفينه.

ساد الصمت مجدداً، لكنه صمت مريح. . طقطق حطب المدفئة بصوت منخفض. كانت تتمدد على السجادة كلبة جميلة، وديّة. . وبدا من الغريب جداً كيف تقبلت ناتالي واقع أن هذا الرجل هو والدها. . وأحست أنها هنا في بيتها.

قالت بعد قليل:

ـ قلت إن أمي كتبت لك. . متى كان هذا؟

ـ حين جاءت معك لتطمئن على استقرارك هنا. قالت إنها ستشعر بسعادة أكبر بأن شخصاً مثلي سيرعاك. . وأعطتني الخيار في أن أقابلك أولاً.

تنهد:

ـ ولقد دهشت لاكتشافي بأن عندي رغبة قوية بمعرفة ابنتي الأخرى.

ـ وهكذا سعيت إليّ.

ـ أجل. . فكرت أنني قد أسهّل عليك الأمر لو أعطيتك فرصة لتحبيني أولاً.

هزت ناتالي رأسها. . ربما أراد أولاً أن يعرف كيف تبدو هذه الابنة المجهولة قبل أن يلزم نفسه. .

ـ ناتاليا. . هل أمك سعيدة؟

بدت عليها الدهشة:

ـ أجل. . أجل. . هذا ما يبدو لي. . لماذا؟

ـ لأنها طلبت في رسالتها أن لا نعلن علاقتنا. . والسبب الذي أعطته هو أن زوجها سيجد صعوبة أن يسامحها لخداعها له.

ـ خداع. . أوه. طبعاً، أعتقد أنه تقبل كونها أرملة، كما تقبلته أنا. أجل. . إنه متشدد جداً في وجهات نظره. . وقد يجد كذبة كهذه لا تغتفر. . إنه طيب ومستقيم. . ومع أنه قد يسامح أمي، لكنه قد لا يتمكن من الثقة بها مجدداً.

هز رأسه ليقول بهدوء:

ـ مسكينة ڤيوليت. . إذن لا يجب أن ندمر سعادتها. . وهذا لسوء الحظ يعني أن الصلة الحقيقية بيننا يجب أن تبقى سراً. . وهذا ما قد يسبب بعض الكلام.

انتشر الاحمرار سريعاً على بشرة ناتالي، لكنها قالت بجرأة:

ـ أنا لا أهتم. . إذا كنت أنت لن تهتم.

ـ أخشى أن لا يكون لديك فكرة عما سيكون الكلام. . ستكون شائعات من النوع البذيء. . وبما أنني لن أستطيع المخاطرة في إخبار ابني وابنتي بأمرك. . قد أصادف أوقاتاً سيئة

هنا كذلك..

جعلها شيء ما في صوته ترفع رأسها، لتقول مترددة:

ـ يبدو عليك وكأنك لا تحبهما كثيراً.. أو تثق بهما.

ـ هذا مكرٌ منك.. لا.. أنا لا أثق بهما.. أعتقد أنني وأمهما قد أفسدناهما.. لقد تربيا في جو من الارتياب والكراهية وحاولنا أنا وأمهما التعويض عن هذا بتدليلهما، والنتيجة كالعادة.

قالت وصوتها متلون بمعرفتها المفاجئة عما سيكون هناك في انتظارها:

ـ ليس بالضرورة أن أقابلهما.

ـ وهذا ما أظنه الأفضل.

تنهد يمسك بيديها وينظر إلى عينيها بنظرة ماكرة متفهمة للحياة:

ـ ربما.. من الأفضل أن تفكري بالأمر ناتالي.. لا.. لا تقولي نعم بعد.. أنت الآن غير متوازنة.. سيصل التاكسي في أية دقيقة الآن ليأخذك إلى النزل. حين تصلين هناك فكري بحذر شديد.. فستكون زياراتنا للحديقة عُرضة للكلام الخبيث والسخرية، ولا أريدك أن تتأذي.. سأفهم لو أنك فضلت أن لا تعرّضي نفسك لمثل هذا.. فأنت لا تدينين لي بشيء.

بدا مستوحداً وهو يلوح لها مودعاً، عجوز، ومتعب.. لا صحبة له سوى الكلب الصغير..

ربما هذا ما اتخذ عنها قرارها، وهذا ما حدث وهي تتجه إلى الحديقة العامة في اليوم التالي، فالشمس مشرقة والسماء صافية مع أن الحدائق كانت لا تزال تلمع بزهور الصيف، إلا أن من

السهل تقبل أن الشتاء ليس ببعيد.. كالعادة، كان جالساً ينتظرها على المقعد الخشبي، وأسرعت نحوه تنير ابتسامتها وجهها، تتلاعب الريح بخصلات شعرها الأسود القصير تدفع باللون إلى وجنتيها.

حين اقتربت تعثرت خطواتها.. لم يكن الجالس هناك والدها.. بل ابن أخته تشاد.. كان يستند إلى مؤخرة المقعد، ساقاه الطويلتان ممدودتان، تعابير وجهه مفترسة. حين وصلت بقي كما هو وتسمرت عيناه البراقتان في وجهها بشكل مهين.

كان الذعر من أول ردود فعلها.. وسألت مترددة:

ـ هل.. من خطبٍ؟ هل السيد ويستر بخير؟

رد بكلمات باردة عن عمد، مليئة بالسخرية:

ـ ليس مريضاً، ولا متعباً.. اجلسي ناتالي..

شدت فمها لكنها أطاعت إشارته الكسولة، وجلست بعيدة عنه بقدر ما يسمح المقعد الخشبي الطويل.

ابتسم وقال متشدّقاً:

ـ فاتنة.. أجل، أستطيع أن أرى ماذا يريد دانيال.. يريد شبابك، وجو النضارة البريء.. لكن ما أفشل في فهمه، هو ماذا ترين أنت فيه.. المال كما أعتقد.

كان ينظر إليها بعينين نصف مغمضتين، يراقب تلاشي اللون عن بشرتها، ليتركها صفراء مذهولة.

أكمل بهدوء:

ـ لديه الكثير من المال.. فهو لم يكن محاسباً ناجحاً مقابل لا شيء.. إذا كنت تتوقعين الثراء من ورائه، فكري مرة أخرى.

إذن لقد بدأت المعركة.. جعلها التعبير المتذاكي الذي على وجهه تشعر بالغثيان.. لكنها رفعت رأسها بكبرياء.

ـ أنت تفترض أشياءً لا دخل لك فيها؟

ـ عزيزتي.. أعرف أنك ذهبت إلى منزله ليلة أمس، ولم تخرجي قبل الحادية عشرة!

تراجع في المقعد إلى الخلف، ودس يديه في جيبيه.. راقبها من تحت أهدابه الطويلة، وضاقت عيناه في مواجهة الشمس.

وأحست بعقدة ذنب لا منطقية وبغضب:

ـ وهل تمتعت بتجسسك علينا سيد غرايزر؟

ابتسم بلؤم:

ـ لدي أشياء أفضل بكثير أفعلها بدلاً من اللحاق بساقطة جميلة وصغيرة في شوارع أوكلند.. كان يكفي إجراء بضع مكالمات هاتفية لأحسم الأمر.

انبعثت في أعماق عينيها الشرارات الذهبية إلى الحياة.. وتملكها غضب بارد.. وقفت بسرعة تقول بصوت جلي: وداعاً سيد غرايزر.

وابتعدت عنه بسرعة، ظهرها متصلب حتى كادت تحس به ينشطر.

لم تتوقع منه اللحاق بها، حتى أن صوته من خلفها جعلها تجفل وتتعثر.. أمسك بها على الفور ليوقفها.. صاحت به بوضوح مثلج: ابتعد عني.

نظر إليها من ارتفاع هامته. تلاشت كل التعابير من قسماته الجافة:

ـ سأبتعد بعد أن تستمعي إلى ما سأقوله.. إذا كنت بريئة كما يقترحه احمرار وجهك، فقد يوفر عليك هذا ألم القلب.

ترددت فأكمل بوقار:

ـ أظن من الأفضل أن تسمعي ناتالي.. أين هم والديك؟

ـ في جزيرة «ساوث ايلند».

نظر إليها طويلاً، ثم ابتسم ابتسامة فاتنة لا تقاوم.

ـ ما كان يجب أن يتركاك تأتين إلى هنا وحدك.. كم عمرك؟

أجفلت ناتالي لهذه الفتنة غير المتوقعة.. واتسعت عيناها وهي ترد:

ـ اثنان وعشرون.. وهذا سن ليس صغيراً جداً لأن أطرَد من «العش».

ـ أهذا ما حدث؟ طرداك من العش؟

ـ لا! كنت.. كنت أتكلم مجازاً.

طالت الابتسامة التي حوّلته إلى رجل جذاب جداً..

ـ فهمت.. اثنان وعشرون سنة في حماية كاملة.. وبكل تأكيد حان الوقت لأن يعلّمك أحد وقائع الحياة. لكن لا يجب أن يكون دانيال.. وتعرفين هذا.

ـ لكنه ليس...

وصمتت تشيح برأسها، تدرك ببؤس أن عليها الحفاظ على سرّ أمها.. قال بصوت لطيف، مما جعل نبضاتها تتسارع:

ـ إنه كبيرٌ بما يكفي لأن يكون والدك! لا شك أن أمك حذرتك من المدينة الكبيرة المليئة بالرجال السيئين.. يعرف دانيال تماماً أن لك جسداً نحيلاً مغرياً.. وبشرة كأنها الحرير،

وعينين سوداوين.. لقد تناقشنا بأمرك يوم أخذته إلى أوكلند.

ردت بخشونة غاضبة للتسلية المزدرية في كلماته.

- لا أصدقك.. لن أستمع إليك تقول مثل هذه الأشياء الفظيعة.. أنت لست بالنسيب المخلص.

سخر بها:

- أوه.. أنا رجل محنك.. وكذلك دانيال.. ولن تكوني الأولى. منذ موت خالتي تتواجد نساء كثيرات في حياته.. كلهن أصغر بكثير منه.. كان دائماً هكذا.. وخالتي كانت أصغر منه.

- لست مضطرة لأن أستمع إلى.. هذا الكلام السخيف.

واستدارت لتبتعد عنه.. لم تكن ترغب في شيء أكثر من أن تصرّح بالحقيقة في وجهه، حول علاقتها بعمه.. لكنها لم تستطع. جعلتها يده على مرفقها تقفز رعباً.. لم تكن قبضة مؤلمة لكنها أحست بنفاد الصبر في أصابعه الطويلة.

حذرتها غريزة ما بأنه في هذه اللحظات قد يرغب بأن يؤلمها، ويستغل أصغر عذر يُتاح له.

- بلى.. ستستمعين إلي أيتها الحمقاء الصغيرة.. ألا ترين..

- كل ما أراه أمامي هو رجل يتدخل في شيء لا علاقة له فيه.. هل عيّنتك عائلة دانيال لتراقب مصالحها؟ كان يجب أن تختار مرتزقاً أكثر ملاءمة منك.. فقد أكون ساذجة وآتية من مناطق ريفية.. لكنني أكره أن يتعالى عليّ أحد.

ضاقت عيناه في نظرة متشدّدة مركّزة:

- وهل قلت إنك ساذجة؟ كم هذا غباء مني.. لا شك أن احمرار وجهك من تجهيزات العمل.. حسن جداً ناتالي.. كم؟

كادت أن تهوي من لهجته الرسمية الباردة القاطعة.. وقفت فاغرة الفم صامتة إلى أن استقرت الإهانة في دماغها، فابتلعت ريقها وشدت قبضتي يدها.

قال بنفاذ صبر:

- هيا.. لا داعي للتظاهر بعد. لقد كدت تخدعينني، وأنصحك بتجربة العمل في التمثيل.

- أنت.. أيها.. أيها..

قاطعها بحدة: كم؟

وكان صوته خنجراً وهو يسمي مبلغاً جعلها تشهق مجدداً. وأكمل بلهجة الآمر:

- فكري.. إنه مبلغ معقول جداً.. ولن تضطري إلى النوم مع عجوز لتحصلي عليه.

راعتها المباشرة الفجة في مساومته، فابتسم ساخراً، يمد يده ليدفع خصلة شعر إلى وراء أذنها:

- أنا واقعي.. لا تقرري الآن.. سآخذك الليلة إلى العشاء، وستعطينني ردك.

جعلتها الطريقة التي كان ينظر فيها إليها متوترة، وقالت باختصار: لا.. شكراً.

قال بوقاحة:

- يمكنك أن تفيدي نفسك أكثر مما سيفيدك دانيال.

- إذا كنت تعني ما أفكر به. فالرد لا.. قطعاً.

ارتبكت بشكل لا يصدق ولم يكن صوتها مرتجفاً.. لا يمكن لهذا أن يحدث لي.. لكنه يحدث.. هي ناتالي المتحفظة والتي لا

تملك خبرة عما يسمونه بالحب! يخطىء هذا الرجل الظن بها على أنها «ساقطة»!

أكمل كلامه بهدوء توضح نظرته ما سيتحدث عنه تماماً:

ـ أظنك ستتمتعين بالبديل أكثر من الطريق الذي اخترته.. دانيال ليس خرقاً، ولا فاقد الكفاءة.. لكنه عجوز..

كان تشاد غرايزر يجبرها أن تواجه حقيقة بشعة.. فلهجته الساخرة المحنكة، تقطع براءتها إرباً.. كرهته في تلك اللحظة، كرهته كراهية ازدادت قوة مع الجاذبية الحقيقية التي شعرت بها حين ابتسم لها. وكان يتعمد الابتسامة ليفتنها حتى تستسلم.. وليفعل هذا استجمع جاذبيته التي لا شك بأنه استخدمها آلاف المرات من قبل.

قالت ببرودة: ربما هذا ما أريده..

قال بازدراء متوحش:

ـ فهمت.. أنت لست مستعدة لكسب مالك بشرف.. فليكن إذن.. لقد بدأت المعركة.. ولا تأتي إليّ متذمرة تطلبين الرحمة في أية مرحلة قادمة.. وإلى أن أنتهي منك ناتالي ستتمنين لو أنك قبلت عرضي.. لا يمكن أن تكوني قد تعلمت الشيء الكثير عن العلاقات بين المرأة والرجل بعد.

انتزعت مرفقها منه، خائفة من البرودة في لمسته ووجهه وكلماته: دعني!

تصلبَ جسدها الشاب النحيل أمام موجات الغضب التي أحست أنها تكاد تغرقها، واشتدت قبضتاها إلى جانبها.

ـ بإمكانك أن تذهب.. إلى الجحيم!

واستدارت مبتعدة..

أحست به يراقبها.. وسارت مسرعة تحت الأشجار المائلة الغصون إلى البوابة حيث كوخ لبيع الزهور.. ووصلت إليها رائحة عطرة جميلة، كانت عادة تقف لتبدي الإعجاب بأوراق الزهر المخملية، لكنها اليوم سارعت تمر بها دون أن تراها.. كانت رغبتها الوحيدة تتمثل في وضع أكبر مسافة بين نفسها وبين تشاد غرايزر، وبأسرع وقت ممكن.

* * *

www.liilas.com
Ami

٢ ـ سعادة قصيرة العمر

ذهبت ناتالي تلك الليلة إلى الفراش باكراً.. استلقت مستيقظة لوقت متأخر يدور دماغها في ذاكرة الأحداث غير المعقولة التي مرت بها. خمدت ببطء أصوات النزل وضجيجه.. خفت بعد ذلك أصوات زحمة السير في الشوارع، حتى أن الصمت كان شديد الوطأة، ما عدا أصوات غريبة ومألوفة من البيوت العتيقة..

كانت ناتالي مستلقية ويديها خلف رأسها، تحدّق بالسقف.. وارتجفت الآن، فاستدارت تدسّ نفسها تحت البطانيات.. لقد توصلت إلى قرار.. لن تسمح بوجود تشاد غرايزر أو بدونه، لأي نوع من الفضيحة التي يحاول نشرها، أن تمنعها من التعرف أكثر إلى دانيال ويبستر.. كانت طوال حياتها تتوق لأبٍ.. والآن وقد وجدت هذا الأب، لن تسمح لأحد أن يخيفها كي تهرب.

وهناك سبب آخر كذلك.. «دانيال» فهو وحيد.. ولا يتمتع بصحبة ابنه أو ابنته.. ولم يكن بإمكان ناتالي أن تدير ظهرها لشخص هو بحاجة إليها.

هكذا حين اتصل بها في النزل في الصباح التالي، واقترح أن تأتي إلى العشاء معه، قبلت دون تردد، وسحبت بعضاً من

مدخراتها من المصرف، لتشتري لنفسها تنورة من محل في أسفل الشارع كانت قد أعجبت بها في الماضي، وكانت منكبة جداً على التوفير فلم تشترها، هذه الآن مناسبة، والتنورة لائقة مع سترة حمراء من الصوف المحبوك، وبلوزة بلون زهري وذهبي، تزيد التركيز على شظايا الذهب في عينيها.

لم يكن زوج أمها يشجع وَضع الماكياج، لكنه لم يحرّمه، لذا كانت دائماً تضع أحمر الشفاه.. وأدركت منذ قدومها إلى أوكلند، بأن هناك طرق في وضع الماكياج أكثر بكثير من تلوين الشفاه.. استخدمت مزيجاً من اللون الزهري والذهبي على وجنتيها قبل أن تضع ظلال الرموش.. ولامست خديها بفرشاة خدود، ثم استخدمت أحمر الشفاه، أتبعته بطبقة لماعة.

حين وقفت متراجعة تنظر إلى نفسها في المرآة، لم يبدُ لها أن الكثير قد تغير، ما عدا أن عينيها الكبيرتين بدتا أكبر وأكثر لمعاناً وبرز خداها ليزيدا من جمال قسمات وجهها.

قالت بصوت مرتفع، ترفع ذقنها الصغير المربع أمام المرآة: يا إلهي!

دست حذاء جديداً تحتفظ به للمناسبات.. لم تكن مذهلة، ولا أنيقة، أو جميلة، لكنها على الأقل، ستبدو لائقة.

كانت جاهزة حين وصل والدها منذ عشر دقائق.. وقررت أن لا تقول شيئاً عما جرى في الحديقة.. فهذا سيكدر دانيال فقط ولا تريد هذا.

حيّت أباها بابتسامة دافئة، ورد عليها بمثلها، مقبلاً خدها:

ـ لقد حجزت لنا طاولة في مطعم يدعى «فلامنغو» أظنه

سيعجبك.

ـ هل هو كبير جداً؟

ـ لا.. بل صغير وودّي.

رفعت بصرها إلى نوافذ المطعم المزينة بستائر مخرّمة، وأحست فجأة بالسعادة.. هذا والدها معها.. وسيتعلمان في الأشهر التي ستأتي تَفَهُّم بعضهما والتقدير المتبادل، ليبنيا بحذر الجسر فوق فجوة الحياة التي صنعتها السنين.

كانت الأرض في الداخل مرصوفة بالأسود والأبيض، القماش الأبيض يغطي الطاولات المحاطة بكراسي خشبية بيضاء.. كان الفلامنغو منزلاً قديماً بطابقين، مع جو مرحب عفوي. على كل طاولة شمعة في شمعدان زجاجي، زهور، وأطباق صغيرة فيها الملح والبهار والزيتون.

وكان هناك أيضاً، نشاد غرايزر مع امرأة أنيقة، ترتدي فستاناً أسود، تبدلت نظرتها من الإثارة إلى نظرة تكبر، حين لحقت بنظرة مرافقها ورأت من دخل المطعم لتوه.

أحست ناتالي بخفقة في معدتها، وضاقت حنجرتها تحت فم أصيب بالجفاف فجأة.. يا لها من صدفة بائسة!

وقف نشاد، والتقت نظرته فعرفت أن الأمر ليس مصادفة.. فلقد اكتشف خطة دانيال وقرّر أن يقوم بدور الحارس له.. كان يمكن لهذا أن يكون مسلياً، لولا أنه مؤلم.

قال دانيال وقد بدا عليه السرور لرؤيتهما:

ـ كيف حالك أونا عزيزتي؟ وأنت نشاد.. جميل أن أراكما معاً.

ما إن انتهت التحيات والتقديمات، حتى استدعى نشاد رئيس السقاة، وانتقلوا جميعاً إلى طاولة أخرى. وجلست ناتالي، تدرك بؤس أنها لن تتمكن من تناول الطعام تحت نظرات نشاد، ولا نظرة أونا المتعجرفة المركزة عليها. وسألتها بصوت ناعم، مرتفع النبرات قليلاً:

ـ هل أنت جديدة في أوكلند ناتالي؟

أحست بقشعريرة غضب تضرب بشرتها: أجل.

ابتسمت أونا تعاطفاً.. تخفض رموشاً كثيفة فوق عينين لوزيتين:

ـ إنه عالم كبير مربك هنا.. أليس كذلك؟

ردت ناتالي بأدب، بالكاد يخفي عداءها:

ـ لا.. بل أجده مثيراً جداً. الناس رائعون، لكن كثرتهم تذكرني بالقطعان.. أغنام في الواقع، في قطعان.. وهذا ما أنا معتادة عليه.

تدخل دانيال ليهدىء من نبرة التحدي في صوت ناتالي وتمسكت أونا بلهفة بما قال.. وبدا أن الثلاثة يدورون في حلقة اجتماعية ضيقة.. كان والد أونا صديقاً لدانيال، وكان صديقاً أقرب لوالد نشاد حين كان حياً. والجميع يعرف هذا.

فكرت ناتالي بإحباط: إنها عائلة كبيرة وسعيدة.. وأدركت أن نشاد وأونا يفعلان ما بوسعهما لإبراز هذا وليجعلا دانيال يحس أن ناتالي لا تتناسب مع الدائرة.

كانت ناتالي مع كل ذلك تشعر ببعض المشاعر التي تصلها من نشاد.. مشاعر أخافتها.. وأحست أونا دراير بها كذلك..

وقالت شيئاً بصوت منخفض، وضربت أصابعها الزهرية الأظافر يده.. لكنه تجاهلها مركزاً عينيه على ناتالي.. ربما كان ينتظر منها هفوة تجعلها تبدو غبية، ووجدت أنها تكرهه من كل قلبها، وتكره أونا لأنها تحذو حذوه.. لكنها كانت حذرة في أن تُبقي مشاعرها لنفسها.. فقد أفسدا الأمسية لها ولن تسمح لهما بإفسادها على دانيال.

هكذا أصغت بهدوء لأونا تتابع أطراف الحديث. تتحدث طويلاً عن المطاعم الفاخرة التي زارتها في أنحاء العالم.. أحست ناتالي بالدفء في شرايينها، مما حذّرها بأن تتحرك قليلاً كي لا تشعر بالنعاس.

وقفت معتذرة وذهبت إلى حمام النساء، ولحقت أونا بها.. وما إن اختفتا عن الأنظار حتى سقط قناع الحيوية وأخذت أونا تنظر إلى ناتالي بازدراءٍ متكبرٍ، كان من المفترض أن يجعلها تتكمش.. بشجاعة باردة، كانت دائماً تهب لنجدتها كلما دعتها، رفضت ناتالي الاستجابة لاستفزاز المرأة الأكبر سناً. إلى أن قالت أونا ببرود:

ـ أتعرفين.. أعتقد أن دانيال بدأ بالخرف.. يا للمسكين العجوز! أنا لا أتوقع منه أن يطلب الكثير من الحديث منك، إلا أنك فعلاً غبية، ألست هكذا؟ على أي حال لا شك أنك ستدفعين ثمن طعامك بطريقة أو بأخرى.

أنهت ناتالي تلوين فمها مجدداً، وبشرتها تكاد تجف من فرط التوتر، وردت بلا مبالاة أو أي دليل في صوتها:

ـ كم أن لك تفكيراً مبتذلاً!

وبينما كانت أونا لا تزال فاغرة الفم، تابعت ناتالي بثقة بالنفس:

ـ لو كنت مكانك، لما حاولت العجرفة أكثر من هذا لأن محاولتك تجعل كلماتك غير مترابطة.

ـ أيتها.. أيتها..

ابتسمت تتراجع إلى الوراء:

ـ الآن سنعرف كيف تتصرف سيدة راقية، كما أعتقد.

ووقفت تراقبها تشد قبضتيها بحقد، تكاد تقطع راحة يدها «بالمخالب» الطويلة. وصاحت أونا:

ـ أخرجي من هنا.. وإلا سوف.. سوف..

ـ أنت متبجحة.. لن تفعلي شيئاً.. لكن تذكري هذا في المستقبل.. إذا كنت لا تستطيعين التحمل فلا تبدأي شيئاً.. أما أنا فلدي أخلاق.. لكن قد يدخل شخص يوماً ما لدائرتكم تختلف تربيته عن تربيتي.. وإذا لم تصوني لسانك فقد تعرفين قدر نفسك بطريقة تحطم غرورك.. مع أن هذا لن يضيرك أبداً.. بالطبع.

خرجت ناتالي بسرعة وبرأس مرتفع عالياً قبل تبلور ردّ الفعل عند أونا.

وقف الرجلان، بحركة تبرز مدى فظاظة تشاد يوم كان يراقبها من المقعد في الحديقة ممدد الساقين. وقابلت نظرته المتفرّسة متحدية.. يشعل الغضب عينيها.. فمها مشدود بقوة لمنع الشفتين من الارتجاف.. إنها تحتقره الآن أكثر لإشراكه أونا إلى جانبه، وللحظات بدت مشاعرها ظاهرة. ورأت ناتالي القلق على وجه

أبيها فسارعت للابتسام له.. هذا أمر سهل.. لكن كان من الصعب أكثر إبقاء الابتسامة مع عودة أونا.. صحيح أنها لم تقم بهجوم مفتوح.. إلا أنها تجاهلت وجود ناتالي تماماً.. وكان الرجلان سريعين في التقاط التوتر، ودقيقين تماماً في تخمين السبب.

هكذا كانت بقية السهرة مكبوتة.. وأحست ناتالي بالارتياح حين تحرك دانيال للذهاب، لكن ارتياحها تحول إلى توترٍ، حين سمح تشاد لنفسه بمسؤولية توصيلهما.

ـ سيارتي متوقفة قريباً من هنا.. أعطني خمس دقائق وسأعود بها.

ـ لا.. أنا قادر تماماً على السير.

هكذا ساروا معاً إلى السيارة.. سيارة مختلفة.. عملاقة يبدو عليها المال الكثير..

كان تشاد بالطبع سائقاً ممتازاً.. أتت ردة فعله سريعة أمام سائق أرعن تخطى الإشارة الحمراء، وكادت السيارتان تصطدمان لولا براعة تشاد.. وقفزت ناتالي غير قادرة على منع نفسها من صيحة خوف منخفضة ولامس على الفور والدها يديها المضمومتين، وابتسم لها مطمئناً.

استدارت في هذه اللحظة أونا لتلعن بلسانها اللاذع سائق السيارة الأخرى.. وتسمّرت عيناها على أيديهما المتشابكة.. لم تقل شيئاً.. لكنها التوت في مقعدها وعلى تعابير وجهها أنها تتشوق لأن تخبر تشاد.

للحظات، أبعدت نفسها متصلبة عن الرجل الجالس إلى

جانبها، تحس بالغثيان.. لم يقل شيئاً.. لكنها عرفت أنه فهم، ولن يحاول أن يغير رأيها لو قررت الانفصال عنه.. لقد سبق أن قال لها بأنه يحس أن ليس من حقه طلب محبتها أو وقتها.

عادت الشجاعة، التي ساعدتها طوال السهرة لمساعدتها، مرة أخرى.. دانيال ويبستر هو والدها ولها كل الحق في صحبته.. كل الحق في بناء علاقة معه. وارتفع ذقنها دون وعي بحركة كبرياء.. واتخذت فوراً القرار.

لكن، فيما بعد تلك الليلة، وفي الوقت الفاصل بين الصحو والنوم، أخذت تتساءل عما إذا كان تشاد قد عانق أونا حين أوصلها إلى منزلها.

أبعدت خصلات شعر مبللة عن جبينها. ما الذي يهمها لو أن أونا حبيبة تشاد؟ كلاهما كريه، ومتناسبين أكثر من اللازم. لكن تفكيرها لم يدعها ترتاح.. وأكملت تصوراتها لتغفو وتدخل في حلم حلت فيه مكان أونا

نسيت الحلم لحسن الحظ مع اقتراب الفجر، وصرفت النظر عن الإحساس الذي عرفته واعتبرت أنه مجرد غيرة. وما تبقى منه دفعته إلى دائرة النسيان في دماغها.

كانت الأسابيع التي تلت مشحونة.. طوّرت هي ووالدها ببطء روتيناً محدداً. كان يأتي في أيام الصحو إلى الحديقة أو يأخذها إلى الغداء في مطعم صغير أو مقهى.. وثلاث أو أربع مرات في الأسبوع تذهب بسيارة تاكسي إلى منزله، حيث يقضيان الأمسيات يتحدثان ويصغيان إلى الموسيقى. ويكتشفان بسعادة مشتركة أنهما يحبان الأوبرا، والمؤلفات العاطفية.. لكن الكتب

كان لها اهتمام أقل بالنسبة لناتالي.. ودفعتها سعادته بالقراءة لأن تقرأ أكثر مما فعلت لسنوات. لمجرد أن تتكلم عما تقرأ معه. كان يسلي نفسه بوضع قائمة بأسماء المؤلفات التي يجب أن تقرأها إذا كانت تريد أن تعد نفسها مثقفة. وكان يضحك لانتقاداتها، ويجعلها تبرّرها، حتى أنها اتهمته بأنه أستاذ في أعماق نفسه. وعرفت أنه لطالما أراد مزاولة مهنة التعليم، لكن والديه ارتعبا للفكرة.

وأكمل:

ـ فاستسلمت لهما. إنها قصة حياتي.. فلا تسمحي لأحد أن يدير لك حياتك ناتالي حتى من يحبك. ستجدين عند وصولك إلى النهاية، أن كل ما حققته هو طموح الآخرين.

ـ لا أصدق بأنك سمحت لأحد ما بأن يدير لك حياتك طوال عمرك.. لم تأت بعد إلى النهاية.. وأنت لست كبير السن جداً.

ـ لقد تجاوزت الستين.. ولا تحاولي القول إنك لا تعتبرينني عجوزاً.. لأنني أذكر كيف كنت أنظر لمن تجاوز الثلاثين، وأنا في سن العشرين.

ـ حسن جداً.. وماذا في هذا؟ يحيا الكثيرون حتى التسعين. لماذا لا تذهب إلى مدرسة محلية وتعرض عليهم أن تستمع إلى قراءة الأولاد؟ أو..

ضحك معلقاً على شخصيتها المنفتحة وأقفلا الموضوع. لكن فيما بعد تذكرته ناتالي وبكت.

تعلمت أشياء كثيرة في تلك الأمسيات.. لكن الأشياء غير المحسوسة التي كان يرشدها إليها، كانت أكثر أهمية لها

واستوعبت دون وعي مواقف وتصرفات ومُثُلٌ لم تكن تدركها من قبل.. وعرفت أنه كان يعطيها الثقة بنفسها لتكوّن نفسها.. ولم تكن ممتنة لهذا إلا بعد وقت طويل.

أحست ناتالي أول مرة جاء فيها تشاد بالقلق.. لكنه بدا أنه لا ينوي مهاجمتها في وجود خاله.. وأمضى معظم الأمسية يتحدث إليه، وكانت تستمع وتجد، لدهشتها، أنها تتمتع بلقاء دماغين رائعين.

عرض تشاد في الساعة الحادية عشرة أن يوصلها إلى النزل. لكن دانيال رفض عنها، فرفع تشاد حاجبيه ولم يقل شيئاً.

قال دانيال بعد أن أقفل الباب خلف تشاد:

ـ لقد كان في أوستراليا في عمل.. وأنا مسرور لعودته، لأنني أتمتع بالكلام معه. إنه يشبه والده كثيراً، وذكي مثله تماماً، ويملك إحساساً بالمرح كان يفتقده والده.. أنت لست معجبة به.. أليس كذلك؟

ـ ليس كثيراً.. إنه مخيف.. قليلاً.

ضحك دانيال.

ـ أنت لا تظهرين هذا.. إنه يأتي لرؤيتي مرة في الأسبوع على الأقل.. ويخفي تحت ذلك القناع المتسلط قلباً لطيفاً.

ربما.. لكن بكل تأكيد ليس بالنسبة لناتالي.. أملت أن لا تتناسب أمسية زيارته اللطيفة مع زيارتها.. إلا أن زيارته لمرة في الأسبوع أصبحت مرتين، وفي بعض الأحيان ثلاثة.. وذكرت لوالدها مرة أنها بالكاد تراه وحده الآن، ورد عليها دون التزام بحيث أدركت أنه يريد هذا، أو على الأقل يتقبله.

هكذا أجبرت نفسها على تجاهل الاضطراب الذي كان يسبّبه تشاد لها.. وكانت جهودها أسهل مع واقع أن تصرفه نحوها لم يتغير.. كان يعاملها كابنة خال صغيرة، وحدها الاتهامات في عينيه تكشف عن رأيه بها..

كان من الواضح أن دانيال يتمتع بهذه المناسبات، لذلك تحملتها ناتالي.. ثم استدعيت ليلة سبت إلى الهاتف، وكان تشاد.

قال دون مقدمات:

ـ مات دانيال منذ ساعة.

لم تندهش ناتالي.. صحيح أنها صُدمت وفُجعت، لكن في عقلها اللاواعي كانت تتقبل الأمر. أحست بالعذاب كحد السكين، وضغطت يدها على قلبها.

ـ ناتالي؟

كان صوته نافد الصبر.. فردت كالمخدرة:

ـ نعم.. أنا هنا.. ما سبب موته؟

ـ نوبة قلبية.. لقد حذّره الأطباء بأن لا يجهد نفسه.. ولنأمل أن لا تكوني أنت قد قتلته.

عرفت لماذا هو شرس هكذا.. وأحست بالألم الفج، والحزن في صوته العميق.

سألت: متى الجنازة؟

ـ صباح الثلاثاء.. وهذا سبب اتصالي.. أنت قطعاً غير مرحب بك في الجنازة.

ردت دونما تعبير: بالطبع لا.

وأدركت أنها تبكي.. لم تكن تنتحب، بل مجرد دموع صامتة تجري على وجهها.

وتابع صوت تشاد دون رحمة:

ـ على أي حال، أنت مستفيدة في وصيته.. سآتي لآخذك يوم الأربعاء وقت الغداء.

ابتلعت ريقها بصعوبة، تحاول التخلص من غصة قاسية في صدرها:

ـ لا داعي لتزعج نفسك.. لن أذهب معك.

قاطعها:

ـ أوه.. وفّري عليّ مشهد التنسك هذا.. كوني حاضرة.. سنتناقش الأمر يومها.

صمت الهاتف، ووقفت ناتالي بغباء والسماعة التي لم يعد لها نفع في يدها مضغوطة على أذنها.. ومرت بها فتاة توقفت تنظر باستغراب نحوها:

ـ أخبارٌ سيئة؟

أدركت ناتالي كيف تبدو وردت وهي تعلق السماعة: أجل.

ـ أتريدين فنجان شاي أو شيء ما؟

كانت الفتاة تحاول المساعدة، وأحست ناتالي بالدفء نحوها، فقالت:

ـ لا.. سأذهب لأستلقي قليلاً.. ليس بالأمر المهم.

لكن الفتاة بقيت قلقة عليها.. وأطلّت إلى الغرفة بعد ساعة مسؤولة النزل وهي امرأة متوسطة العمر، وسألتها عما إذا كان هناك من شيء قد تفعله لأجلها!

كانت ناتالي مستلقية على سريرها جافّة الدموع:

ـ لا شكراً لك.. أنا.. أنا بخير الآن.

ـ موت؟

ـ أجل.

ـ قريب؟

ـ أجل.

وأكملت لنفسها بسخرية «مجرد أبي.. أبي الذي ما عرفته سوى لمدة قصيرة».

ظهر إعلان الوفاة في الصحيفة مع مقالة صغيرة عن حياة دانيال.. قصّت ناتالي الإعلان والمقال، ثم ذهبت إلى المقبرة ووضعت هناك وسط الأكاليل الضخمة من الزهور، باقة صغيرة متواضعة دون بطاقة عليها.. وانهمرت دموعها مرة أخرى.. لكنها كانت قد بكت معظم حزنها واستعادت بعد بضع دقائق سيطرتها على نفسها، وعادت بالباص إلى النزل.

كان تشاد يجلس حين خرجت من العمل يوم الأربعاء في سيارته بنهاية الشارع.. وخرج منها هذه المرة وهي تقترب وقد بدت تعابير وجهه متجهمة وهو يبحث في وجهها.. لم تكن في أفضل حال.. كانت تعرف أنها متعبة، لكنها أعطته نظرة بنظرة، ترى دلائل محبته لخاله في بروز عظم فكه من تحت جلده وتلاشي كل البريق من عينيه، وكانتا سوداوتين باردتين.

قال وهو ينطلق بالسيارة:

ـ لقد حجزت طاولة غداء لنا.

كان المطعم أنيقاً ومن الواضح أنه معروف جداً هناك، وبعد

أن قام السقاة بما عليهم قال تشاد بصوت حاد:

ـ لقد احتفظ دانيال بمال في المصرف لمصلحتك.. وترك لك المنزل، ومجوهرات جدته.

صدمتها السخرية في صوته.. وابتسمت سعيدة لأن والدها كان عطوفاً بما يكفي ليترك لها شيئاً هو ملك لناتاليا الأولى.. لقد أخبرها الكثير عن تلك المرأة القوية الصغيرة الجسم التي كانت الشخص الوحيد الذي أحبه في صغره.

قال تشاد موبّخاً:

ـ راضية؟ ليس بهذه السرعة ناتالي لأن ولديّ دانيال سيطعنا بالوصية، وإذا رُفضت قضيتهما أبقى أنا وصيك الوحيد.. وأنا أسيطر في الواقع بالضبط على كل ما تحصلين عليه من الوصية.. وهذا سيكون قليلاً جداً، قدر ما أستطيع. ومجوهرات جدته هي مجرد قطع متواضعة، كلها بالكاد تصل إلى قيمة قطعة مجوهرات قيّمة.

اشتعلت شرارات الذهب في عينيها لتغرقهما:

ـ أهذا كل ما تريد أن تقوله لي؟

ـ أليس ما كنت تأملين به؟ أجل هذه حصتك من كل شيء.

ـ إذن أنا واثقة أنك لن تمانع لو تركتك.

حاولت الوقوف بأدب، وأمسكت يده بسرعة بمعصمها قبل أن يقول من بين أسنانه:

ـ لا.. الآن لا يعرف أحد ماذا أفعل.. وتظن تلك المرأة البدينة هناك بأنني أمسك يدك تودّداً.. حاولي بحركة واحدة أخرى أن تتركي هذه الطاولة وسأظهر للجميع هنا شيئاً يتكلمون عنه

لأشهرٍ طويلة.

ارتبكت للحظات.. كان وسيماً في بذلته القاتمة، عملي المظهر. قد يرتدي الرجال مثله، لكنهم لا يفعلون شيئاً مما تهدد به عيناه. مع ذلك استكانت في مقعدها، وأطلقت أنفاسها طويلاً في تنهيدة.

قال: فتاة طيبة.

رفضت بعد هذا أن يكون ردها أكثر من كلمة واحدة.. لكنه أجبرها على البقاء، وكان يأكل بينما هي تدير العجة في طبقها.. ثم قال ساخراً:

ـ هذه المرأة البدينة الآن مقتنعة تماماً أننا حبيبين.

جالت عينا ناتالي بشكل مهين على شكله، ثم نظرت إلى نفسها تسأل بأدب:

ـ حبيبان؟ وهل يحب رجال مثلك أمثالي؟

لامست وتراً حساساً فيه.. لامسته؟ بل طعنته برمح! فقد شحب وجهه، وهي تراقبه مذهولة، واشتد فمه إلى خط مستقيم حاد قوي.

وصل في تلك اللحظة رئيس السقاة، وتوقف ليسأل ما إذا كان كل شيء على ما يرام.. وأسعدت ناتالي محاولته إجبار نفسه للسيطرة على غضبه قبل أن يرد على الساقي بالإيجاب.. وما إن عادا لوحدهما حتى وقف وأخرجها من المكان وأصابعه القاسية على ذراعها.

لم يقل شيئاً في السيارة، سوى: سأتصل بك.

وانطلق مبتعداً.

عادت ناتالي إلى عملها وكأنها أمضت ساعة الغداء تتلمس طريقها عبر حقل ألغام.. وبدأت تقلق على «بتسي» وهي في طريقها إلى النزل. لقد قال لها دانيال إن ولديه الآخرين، لا يحبان الكلاب.. ولا شك أنهما وجدا مكاناً آخراً للكلبة الصغيرة، ثم وجدت نفسها في باص متجه إلى هناك.. كانت إحدى جاورات دانيال تحب الكلاب، ولا شك أنها تعرف مصير بتسي.

كانت بتسي في الواقع عندها.

ـ حين كانوا على وشك التخلص منها، اضطررت لفعل شيء. ترك رجال النقل البوابة مفتوحة، وكانت المسكينة تجري في كل اتجاه وكأنها تبكي على السيد ويبستر.. فجئت بها إلى هنا واستبقيتها.

دفعت ناتالي يدها في شعرها:

ـ ماذا.. أنا آسفة.. لكن أي رجال نقل؟

ـ عزيزتي.. كانوا هنا في الصباح التالي لموت دانيال.. وخرجت أنظر إليهم.. تسمعين قصصاً كثيرة عن جرأة هؤلاء اللصوص هذه الأيام.. لكنهما كانا هناك.. لذا كان كل شيء على ما يرام.. رغم أن الأمر لم يكن لائقاً!

ـ هم.. من؟

ـ ولداه.. السيدة غاردنر وريتشارد ويبستر. أخذا كل شيء، ولم يزعجا نفسيهما حتى بالتنظيف قبل رحيلهما.. لكنني نظفت قليلاً المكان..

انحنت ناتالي تمسح رأس بيتسي:

ـ ألديك مفتاح سيدة مونرو؟

ـ أجل.. لدي مفتاح، لقد سلمني إياه السيد ويستر حين كان يسافر لأرعى بيتسي.. لكنني الآن مضطرة للسفر عند ابنتي ولا أعرف ماذا أفعل بشأن بيتسي..

أحست ناتالي بالجسم الصغير الدافىء يضغط نفسه على ساقيها وأعطاها غضبها الشجاعة:

ـ سآخذها.. في الواقع، وإذا أعطيتني المفتاح، سأسكن في المنزل.. فقد تركه السيد ويستر لي.

اتصلت ناتالي برقم منزل تشاد، وبعد أن رد عليها صوت يشابه صوته، ربما أمه، رد عليها:

ـ ماذا تريدين؟

أخبرته بما حصل، وبقرارها أن تسكن في منزل دانيال.. لكنها لم تقل له شيئاً عن نقل الأثاث. فهو على الأرجح يعرف هذا، ويوافق عليه.

رد عليها باقتضاب:

ـ ليس لك حق قانوني إلى حين تثبيت وصيته.

ـ لا أهتم.. سأنتقل إليه.. فإذا كسبتم القضية سأتركه..

وأكون حتى ذلك الوقت، قد وجدت بيتاً لبيتسي.

ساد صمت قصير، وتصورته يعبس مفكراً بما سيفعل، وقال أخيراً:

ـ حسناً.. سأتحمل المسؤولية.. لكن تأكدي من أن يكون معك مال يكفي لدفع الإيجار الذي سيُطلب منك إذا ربحوا القضية.

ـ يا لهما من ولدين ساحرين.. أليس كذلك؟ ولا شك أنك تشجعهما.

ـ هل خاب ظنك ناتالي؟ ماذا..

جاء من مكان ما من خلفه صوت امرأة.. لم يكن صوت أمه اللطيف، بل صوتاً مميزاً، أونا داير. ضحك تشاد لقولها وأجابها:

ـ سأكون معك في دقائق حبيبتي.

قبل أن يكمل كلامه المهين لها قالت ناتالي:

ـ هل لك لو سمحت أن تشرح للسيدة مونرو أن كل شيء على ما يرام؟.. أرجوك.

ـ أوه.. حسن جداً.

انتقلت إلى المنزل في نهاية الأسبوع.. وصرفت مدخراتها لتشتري سريراً بسيطاً، وما يكفي من أغطية كي لا تتجمد برداً.. لم يكن هناك شيء في المنزل عدا كومة بسط قديمة متروكة في الكاراج، والرفوف المثبتة التي لم يستطيعوا خلعها، واختفت أيضاً أدوات الحديقة. اشترت صباح السبت سكيناً وملعقة وشوكة، وبضع أدوات مطبخ، مع بضعة عظام لبيتسي..

كانت بوجه عام، نهاية أسبوع حافلة.

وضعت بعد ظهر السبت الرباط على بيتسي لتخرجها في نزهة طويلة طويلة.. وكانت الكلبة لا تزال حزينة على دانيال.. وأظهرت موافقتها بالقفز والنباح.

كان الهواء البارد منعشاً، هادئاً بعد توتر الأسبوع المنصرم.. وأهملت ناتالي مراقبة الطقس.

كانت والكلبة على بعد نصف ميل من المنزل في طريق

العودة، حين بدأ المطر ينهمر.. ولم يكن هناك مجال لأي ملاذٍ لهما.. وزاد انهمار المطر وكانت كل نقطة تضرب بقوة.. وأصبحت ناتالي قبل أن تركض لخمسين ياردا، مبللة حتى العظام.. وما إن قطعا نصف المسافة حتى كان الإنسان والحيوان معاً يرتجفان بشكلٍ بائسٍ.

لم تستطع منع نفسها من نظرة الأمل حين توقفت سيارة إلى جانبها.. وسرعان ما أجفلت فقد كان السائق هو تشاد غرايزر، وهو من فتح الباب لها.

قال آمراً: أدخلي.

هزت رأسها:

ـ أنا مبللة أقطر ماء، وكذلك بيتسي. ولم يعد المكان بعيداً الآن!

صاح:

ـ أدخلي أو أُجبرُكِ.

بدا غاضباً بما يكفي ليفعل ما يُهدّد به.. وتسلقت ناتالي إلى الداخل تحمل بيتسي بين ذراعيها، لمنعها من أن تنفض الماء عنها داخل السيارة الفخمة.

قالت:

ـ لست بحاجة إلى..

قاطعها بوحشية:

ـ أصمتي.. أتسمحين؟

وكان هذا كل حديثهما إلى أن توقف قرب كاراج المنزل.

ـ افتحي الباب.. أنت مبللة، أما أنا فلا.. أوجدي لي بساطاً

أجفف به السيارة. لو سمحتِ..

ـ اسمع.. لم تكن مضطراً لالتقاطنا في سيارتك..

قاطعها ثانية لكن هذه المرة من بين أسنانه:

ـ افعلي ما أقوله لك.. وبسرعة.

أسرعت.. وأحضرت له منشفة قديمة تخلى عنها ولدي دانيال.. وكان المكان داخل الكاراج مظلماً فأدارت مصابيح الفلورسنت، تراقب بيتسي تنفض نفسها بحماسة.. ثم قال تشاد:

ـ ارتدي ثياباً جافة! وسأهتم بالكلبة اللعينة.. استحمي بماء ساخن.

حين بدأت تظهر التمرد، هددها:

ـ وإلا سأفعل هذا بنفسي.

هربت وكأن وحشاً مفترساً يطاردها..

كانت حين نزلت مرة أخرى بعد عشرين دقيقة، ترتدي تنورة صوفية حمراء، وقميصاً صوفياً من اللون عينه، طويل الأكمام. كانت خصلها المبللة تحيط برأسها، وتجعلها تبدو في سن لا تزيد عن الستة عشر عاماً.

* * *

www.liilas.com

٣ ـ مشاعر جريحة

Aml

كانت بيتسي مستلقية على بساط قرب الباب الزجاجي، تراقب تشاد باهتمام.. كانت جافة تماماً، وتبدو كأنها تلقت لتوها وجبة طعام.

نظر تشاد إلى الفناء الغارق بالمطر.. كان يبدو كبيراً جداً وصارماً.. وتبدو خطوط المجرفة الظاهرة على وجهه خشنة.. هناك مصباح واحد مشتعل يلمع نوره الذهبي فوق بشرته السمراء، ليزيد من عتمة عينيه، وليبرز بنية العظام المتكبرة التي تعطي وجهه مظهر القوة والجمال، إنه الرجل الأكثر جاذبية الذي عرفته في حياتها. لكنه يخيفها.

لم يصدر عنها صوت. التفت برأسه فقط، والتقت عيناه بعينيها ليقول:

ـ لقد صنعت القهوة.. اشربيها.

ـ شكراً لك.

رد بوحشية:

ـ لم تستطيعي الانتظار للخلاص من كل ذكرى لدانيال؟ لقد حذرتك أن اتخاذك حبيباً عجوزاً مثله لن تكون تجربة مثيرة.. مع ذلك كنت أظن أن العرفان بالجميل كان سيمنعك من مثل هذا

الكنس.. كان هناك قطع أثاث رائعة جداً هنا ولا شك أنك حصلت على ثمن جيدٍ لها..

لا تحتاج الإهانة هنا إلى دليل.. احتضنت ناتالي فنجان القهوة بين يديها، وأجابت:

ـ حين وصلت إلى هنا كان كل شيء قد ذهب. أخبرتني السيدة مونرو الساكنة في المنزل المجاور، أن سيارة نقل مقفلة جاءت في اليوم التالي لموت دانيال.. وظننت أنك أنت من نظّم هذا.

بدا ساخطاً قبل أن تخفي رموشه ما يفكر به:

ـ لم أفعل هذا بكل تأكيد..

وصدقته: ولداه إذن.

ـ قانوناً كانا ضمن حقهم.. فقد ترك هذا المنزل لك ولم يذكر محتوياته.

هزت رأسها تشعر بالغثيان:

ـ كان من الجيد وجود السيدة مونرو لتأوي بيتسي عندها. من الواضح جداً أنهم كانوا سيتخلصون منها.

قال وكأنه يدافع:

ـ قد لا يحب الجميع الكلاب.

ـ بالطبع لا.. هل تريد تناول شيء ما لا أملك سوى القهوة والشاي.

ـ لا.. هذا كله أمر سخيف.. سأعطيك في الغد مبلغاً كسلفة لتغطية المصاريف.. هل تركت عملك؟

ـ لا.. بالطبع لا.. ستكون بيتسي بخير خلال النهار..

وستأخذها السيدة مونرو عند عودتها من عطلتها، كما قالت، وإلى ذلك الوقت تبدو سعيدة هنا.

قال بنفاد صبر يشد الغضب فمه:

ـ أوه.. إلى الجحيم بالكلبة..! أتعرفين ناتالي، لم أستطع أن أقرر بعد ما إذا كنت ساذجة كما تبدين، أم أنك تمثلين ببراعة؟

ـ ظننتك اتخذت القرار.. وبسرعة أيضاً خلال دقائق من مقابلتي.. وفكرت.. هذا رجل يتخذ قرارات حاسمة سريعة. خاصة بعد أن أتحفتني بقراءتك لشخصيتي بعد أسبوع من اللقاء. نظرة واحدة، وهذا كل شيء. أصبحت كل أسراري مكشوفة أمامك.

كانت سخريتها فجّة.. وتصاعدت ألوان الغضب القاتمة إلى خديه. فقال بنعومة وهو يتقدم منها:

ـ يجب أن تراقبي لسانك ناتالي.. وإلا سيوقعك في المتاعب. متاعب كهذه..

أخذ منها فنجان القهوة، ووضعه بحذر على المقعد الخشبي.. وقفت متصلبة وهو يستقيم ليأخذ يديها بيديه، يشدها نحوه.. حين تكشفت لها نيته حاولت الخلاص، لكن قبضته ثبتتها حتى حين أصبحت مقاومتها يائسة، وقفزت بيتسي على قوائمها تدمدم.

ـ اهدأي.

جمدت الكلمة الوحيدة الكلبة، لكن ناتالي تابعت مقاومتها:

ـ لا.. لا.. أنا لم أقصد هذا!

قال بهدوء: بلى.. قصدته.

جعلها دون حراك بين ذراعيه بأن شد خصلة من شعرها إلى الوراء.. وابتسم لوجهها الخائف، حين تكلم كانت الكلمات تتفجر على خدها.

ـ أنت مثيرة كما تعرفين تماماً.. والآن يجب أن تتحملي النتائج.

كانت قد تلقت العناق من قبل.. وقرأت أنه يُستخدم كعقاب، لكنها لم تكن تتوقع أن تمر بمثل هذه التجربة.

حين رفع رأسه ينظر إليها، أحست برعشة فراغ.. قال ببرودة متعمدة:

ـ رائع.. لكنه لا يكفي.

انتشر الضعف في أطرافها إلى أن أخذت ترتجف.. وقفزت في أعماقها مشاعر غريبة إلى الحياة.

همس بخشونة: لا تقاومي.

قرأت في عينيه دلائل التشوّق الذي بالكاد كان يخفيه.. وجعلها الخوف تنتزع نفسها من بين ذراعيه.. قال تشاد ساخراً:

ـ أنت خبيرة بادعاء البراءة المجروحة. هل هذا ما جعل دانيال يعلق؟ لكن هذا لا ينفع معي..

ارتعشت ناتالي وبالكاد سمعته. غارقة بكل كيانها في نفسها، مصدومة، وغير قادرة أبداً على أية استجابة منطقية.. لم تتوقع حتى في كل أحلامها الرومانسية، الاستجابة هكذا مع عناق رجل.. ومع ذلك كيف يمكن أن تكرهه، وتنهار أمام مشاعر شديدة، بحيث أنها حتى الآن تحس بتسارع نبضاتها لمجرد تذكرها؟

كانت هذه أول تجربة لها وكانت مع انتهاء التجربة خائفة لشدة ضعفها وتعرّضها للخطر.

إنه غاضب، أمر مقتنعة به، استدار قائلاً بخشونة فيما هي تحدّق به:

ـ أوه.. توقفي عن هذه النظرة الخائفة.. أعدك أن لا يحدث هذا ثانية.

توالت من فمها الجاف كلمات عديدة لم تتعرف إليها:

ـ أنا مسرورة لهذا.. أتمانع أن تذهب؟ أنا لست..

ـ هل أنت بخير؟.. بالطبع، هذا قناعٌ رائعٌ تضعينه على وجهك ناتالي.. عينان متسعتان خائفتان، وشفتان مرتجفتان، وذلك التعبير الممتاز للبراءة الكاملة. لا شك بأن لديك مستقبل باهر في التحرش برجال كبار في السن.

قالت من بين أنفاسها:

ـ أنت كريه لا تطاق.. أخرج من هنا!

جلست حين خرج على الأرض منهارة، تخفي الدموع الساخنة المتدفقة بيديها.. إنه نذل، نذل.. وفكرت بمرارة: البراءة أمر جيد، لكنها لم تكن قد حضّرتها لأشخاصٍ مثل تشاد غرايزر الساخر الذي يرفض تفسيراً آخراً للعلاقة التي كانت بين خاله وبينها.

جاءت بيتسي لتجلس أمامها، فمسحت ناتالي الدموع بظاهر يدها تقول لها بقلق:

ـ أنا حمقاء بيتسي.. ساذجة وغبية.

كانت تشعر في أعماقها بأن الكلبة بتسي تشاركها عذابها

وتقدم لها المواساة. فهي تحتاج حقاً للمواساة.. لو أنها في بلدتها لحاولت معالجة ارتباكها في الحديث مع أمها.. لا شك أن ڤيوليت أحست بمثل هذا النوع من التجاذب، وإلا لما تنازلت عن مُثلِها العليا لتحبّ رب عملها..

أخبرتها مرة أمها، أن التجاذب جزء أساسي من حب الكبار، لكن لوحده هو وهم متألق زائف، قد يقود إلى تحطيم القلب واليأس.. واستمعت ناتالي لها دون أن تقدّر ما كانت تقوله لكنها الآن فهمت.

وراعها تصرفها.. بالتأكيد من المستحيل أن يتمكن رجل واحد لا تشعر نحوه سوى بالازدراء أن يقلب رأساً على عقب كل مبادئها وتربيتها.. وهذا ما يعني أن عليها أن تكون حذرة، متأكدة بأن لا تبقى معه لوحدها مرة أخرى.

وجاهدت لتخلّص تفكيرها من تأثيره.

وصلها بعد يومين «شيك» بالبريد.. بلهجة محام رسمية، أوضحت لها الرسالة المرفقة بأنها دفعة مقدمة من الكمية التي ستتلقاها من وصية دانيال، وموقعة باسم تشاد.

ارتجفت الورقة في يدها.. كان التوقيع واضحاً كالدليل الساطع على شخصيته.. ويحمل الشيك المرفق كمية من المال لم تكن تحلم يوماً أنها ستراها.

اشترت بالمال ماكينة خياطة كانت تحلم بها، كرسي، وطاولة، المزيد من المناشف، وعظمة كبيرة مليئة باللحم لبيتسي.. ووضعت الباقي في حسابها المصرفي.

تأخرت تلك الليلة في النوم، تخطط، فإن ما تفكر به يحتاج

إلى العزم والجرأة.. لكنه سيكون أكثر إرضاءً من عملها الحالي، وسيبقيها مشغولةً.

اشترت في اليوم التالي قماشاً وشرائط حريريةً، وداتنيل مخرّم، وضرورات أخرى للخياطة.. قررت بعد مشاورتها مع أنجح مصممة ديكور في محلات دوغلاس، دونا راين، أن تستجمع شجاعتها لتدق باب مكتبها.. وقالت لها السيدة راين:

ـ أتمنى لك الحظ.. لديك مجال مفتوح للتقدم المبدع بصنع مفارش للطاولات والوسائد.. لكنك لن تتمكني من كسب عيشك منها في البداية.. أما إذا لفت عملك الأنظار فستصبح السماء حدودك، المهم أن تتابعي إنتاج كل جديد ومثير.

أنتجت ناتالي خلال أسبوع أول نماذجها، مفارش طاولة ومناديلها، وعدة أغطية لوسائد على شكل فاكهة وخضار. وتفحصتها السيدة راين بعناية:

ـ أجل.. إنها جذابة جداً.. ومصنوعة بشكل لائق أيضاً.

استدعت الشاري، الذي تفحص النماذج بعينين دقيقتين، ثم قال:

ـ أجل.. تعجبني.

ثم استدار إلى ناتالي ليتابع كلامه:

ـ ما هي الكمية التي تستطيعين إنتاجها؟

ردت بلهفة: قدر ما تريد.

ضحكت السيدة راين، وابتسم كذلك المشتري:

ـ حسن جداً، لنبحث في العمل.

خرجت ناتالي بعد نصف ساعة إلى الشارع تشعر وكأنها تسير

في الهواء.. صحيح أن المشتري لم يكن متفائلاً جداً.. لكن ما رآه قد أعجبه.

ظهرت السيدة راين قبل أن تغادر ناتالي عملها مساءً وقالت مبتسمة:

ـ آه.. هذه أنت. لقد بعنا نموذجين من صنعك، وتريد إحدى النساء مجموعة كاملة من المطرزة بالفريز أيمكنك صنعها؟

ضحكت ناتالي: بكل تأكيد.

استمر حماسها إلى ما بعد العشاء السريع.. ما إن أنهت المجموعة حتى كان الوقت متأخراً، وعيناها تحرقانها، لكن المفرش والمناديل المطرزة بالفريز كانت منتهية، وكذلك مجموعة أخرى مطرزة بزهور «الكاوهاي» كانت تنوي عرضها على مركز محلي للتسوق مخصص للمفارش وأشياء كهذه.

بعد ذلك مرت بها أسابيع محمومة، بشكل لا يصدّق.. وأصابت مفارشها النجاح بين ليلة وضحاها، حتى أنها اضطرت لقضاء كل دقيقة توفرها في الخياطة، لتلبي كل الطلبات.. وتمكنت من إبعاد صورة تشاد بنجاح عن أحلامها.. ولو سألها أحد، لقالت بكل إيمان إنها نسيته.

قالت السيدة راين في أحد أيام الشتاء:

ـ ما رأيك أن تقومي بهذا لوقتٍ كاملٍ؟

ـ لقد فكرت بهذا، لكنني لا أعرف ما إذا كنت سأفعل أم لا.. انها خطوة كبيرة.

ـ أظنك قادرة عليها.. لديك الخيال والدافع الإبداعي.. ما تصنعينه ممتاز ويتهافت الناس الآن على مصنوعاتك. لذا، لو

كنتُ مكانك لفكرت جدياً بالتخلي عن وظيفتي، وأن تختاري محاسباً، لأنك ستكونين مشغولة جداً ولن تتمكني من مسك دفاتر الحسابات بنفسك.

لم تخيط ناتالي تلك الليلة.. بل جلست على كرسيها تفكر جدياً وطويلاً، بترك الأمان الذي تمثله لها وظيفتها. كانت خائفة في أعماقها، ويمتزج خوفها مع الإثارة والترقب، حتى أنها قالت لبيتسي: لا شك أنني مغامرة!

قدّمت استقالتها في اليوم التالي وأمضت الخمسة عشر يوماً التالية مدة الإنذار بارتياب عما إذا كانت قد فعلت الصواب أم لا!! وتأثرت كثيراً في آخر يوم عمل لها، حين أقامت لها الخياطات في المحل حفلة شاي وداعية.

وتمنت لها السيدة راين الحظ السعيد مضيفة:

ـ إذا أحسست بتعب الكفاح، فلا تترددي في المجيء لرؤيتي.

ابتسمت ناتالي متأثرة: شكراً لك.

كان البقاء في المنزل تجربة غريبة عليها.. وصممت ناتالي أن تكون مرضية، لذا كانت تجلس في كل يوم عملٍ إلى آلة الخياطة في الثامنة والنصف ولا تتوقف عنها قبل الرابعة والنصف.

مرت الأيام بسرعة وبوحدة قابضة للنفس.. ووجدت نفسها تشتاق إلى عائلتها أكثر مما كانت يوم غادرت المنزل.

وكذلك دانيال، صحيح أنها عرفته لوقت قصير، إلا أن حزنها عليه كان حقيقياً، وعميقاً.

نظرت ناتالي متنهدة في الغرفة واشترت بحرصٍ منذ وصول

الشيك أثاثاً مستعملاً، صوفا قديمة، غطتها بغطاء جميل التصميم مطبع بألوانها المفضلة الزهري والأخضر والرمادي، لتمتزج مع سجادة خضراء قاتمة مع خزانة أدراج خشبية منخفضة وبدأت أمها رداً على طلبها بإرسال الكتب لها.. وكانت قليلة جداً على رفوف الكتب المثبتة في الجدران.. لكنها اكتشفت محلاً لبيع الكتب المستعملة وانشغلت في إغناء مجموعتها حتى لم تعد الرفوف مهجورة.

واتجهت نحو الجدار المقابل وصنعت للنوافذ لوحات جدارية، فيها رسومات للزنبق المائي، كانت رومانسية تماماً، وكان الأثاث الوحيد في الطابق الأعلى مجرد خزانة أدراج مستعملة، وسرير وحيد واهتمت بسريرها اليتيم فوضعت عليه غطاءً مخملياً بلون زهري.

لم يعد المنزل فارغاً يتردد فيه الصدى رغم فقدان الستائر فيه، ولم تملك سوى كوب قهوة واحد، ومجموعة «صيني» لشخص واحد.. كانت من أرخص الأنواع التي أعجبتها.. كان في خزانة المطبخ، كمية صغيرة من الطعام، تتبضع بحذر منه، كانت تعمل أحياناً ليلاً ودماغها يدور بمخاوفٍ مشوشةٍ.. ترى نفسها فيها مفلسة، ومضطرة أن تلتجيء إلى زوج أمها طلباً للعون.. وسيساعدها بالطبع.. لكنها ستشعر مسبقاً بعدم موافقته.

وما تبقى من مال الشيك الذي أرسله تشاد احتفظت به في المصرف.. وهذا ما أعطاها بعض الطمأنينة. لكنها كانت مصممة أن لا تستخدم المزيد من إرث أبيها.. إنه احتياطها، وسندها، يجب أن لا يُمس..

وصلتها بعد بضعة أيام رسالة من مكتب تشاد، كتبها لها شخص لا تعرفه. . وشرح لها فيها أن مغلفاً مرفقاً بالرسالة، وُجِدَ بين أوراق دانيال، وقد أُرسِلَ إليها تبعاً للتعليمات على المغلف. ولم يكن هناك دلائل على العبث به، لذا لن يكون المحتوى معروفاً سوى لها.

كانت رسالة يعترف بها أنها ابنته. . وقال إنه يرغب في إعطائها نسبة من أملاكه، هي أصلاً من حقها، لكن لو فعل هذا، فسيطعن ولداه بصحة الوصية. . وسترفض هي لو حدث هذا، فَضَح علاقة أمها من أجل سمعتها، وقد يكسب ولداه المعتبران شرعيان.

كان يعرف بلا شك أن وقته قصير، وشكرها على السعادة التي أعطته إياها في أوقاتهما معاً، وأنهى رسالته بطلبٍ أن تثق بتشاد: «أعرف أنك لا تحبينه. . وهو بالتأكيد لا يحبك. . لكنه أهلٌ للثقة الكاملة وسيقوم بجهده كوصيّ عليك. . اعتمدي عليه. . لكن لا تقولي له من أنت قبل أن تؤمني بأن الوقت قد حان وستعرفين متى يكون هذا».

إنه طلب غريب. . تساءلت ناتالي خلال الأيام التالية عما يعنيه دانيال. . واستعادت ذكرى الكلمات مرة أخرى. . غاضبة من نفسها لأنها لم تستطع إبعاد صورة تشاد من ذهنها. . ليس من الإنصاف أن يكون لرجل مثل هذا التأثير عليها حتى أنها تسعى جهدها لإبقائه بعيداً عن أفكارها.

كانت تجلس حالمة، حين رن جرس الباب بصوت سريع وحادٍ. أجفلت ناتالي في مقعدها خائفة، وكأنما مخيلتها قد

أحضرته لها من حيث لا تدري. . وكان عليها أن تحوّل تعابير وجهها إلى صفحة جامدة. . فقد تحرك فيها شعور فرح أحمق دفع بنبضات قلبها للتسارع معيداً إلى الحياة شظايا الأنوار الذهبية في عينيها.

سألها بصوتٍ قاطع بعد نظرةٍ مقيّمةٍ:

ـ هل لي أن أدخل؟

تراجعت دون أن تعي أنها كانت تسد طريقه. . وسارت أمامه بصمتٍ إلى غرفة الجلوس.

ـ اجلس.

أجفلت لألم مفاجيء في رأسها فسألها: ما الأمر؟

رفعت يدها إلى عضلات عنقها المتألمة قبل أن تومىء إلى الصوفا:

ـ لا شيء. . رأسي يؤلمني.

قال وحاجباه معقودان معاً في خط مستقيم:

ـ يجب أن لا تخيطي. اجلسي وسأصنع لك فنجان شاي. هل تناولت دواء للصداع؟

ـ ما أحتاجه هو بعض الهواء المنعش فقط. . ولا أحتاج إلى شاي أو قهوة. . ماذا تريد؟

وضع حقيبة أوراقه على خزانة الأدراج متجاهلاً خشونتها وراقبته وهو يخرج منها عدة أوراق:

ـ هذه نسخة عن تخمين قيمة المجوهرات التي تركها لك دانيال.

ـ لكنني ظننت. .

ـ ظننت ماذا؟

ـ ظننتك لن تستطيع فعل شيء إلى أن يقرر ولداه الطعن بالوصية.

ـ لن يكون هناك طعنٌ.. لهذا ما من سببٍ قانوني يمنعك من تسلم المجوهرات.

مرّر عينيه بازدراء على طول الجسد النحيل.. وتسارع اللون الداكن إلى وجنتيها وهي تقول:

ـ فهمت.. شكراً لك.

أثار هدوءها غضبه، فسألها بوحشية:

ـ أتريدين أن يتفحصها جواهري آخر؟ أؤكد لك أن ليس من عادتي أن أغش زبائني لكن لو شعرت بأنك ستكونين سعيدة أكثر، اذهبي إلى شخص آخر.

أجابت بخشونة:

ـ أوه.. أصدق أنك لست معتاداً على الغش لكنني واثقة أنك تجاوزت هذه القاعدة لأجلي.

اشتعلت القسمات المتعجرفة غضباً.

ـ لا.. ليس معك.. فلست استغلالياً أبداً ناتالي.. أبداً.

وكان هذا تهديداً أثار الذعر في نفسها.. لكن لو أنها تركت يرى تأثيره عليها، فلن تتحرر أبداً من خوفها.

قالت دون اكتراث: أثق بك.

ـ لماذا؟

قالت بسخريةٍ باردةٍ تخفي أفكارها:

ـ لأن دانيال كان يثق بك.. ولقد كان حكماً ممتازاً على

الشخصيات.

ردّ بوضوح وقحٍ:

ـ قبل أن يُفسِدْ جهل الخرف قدرته على الحكم.. أتتساءلين إذا كنت أنا مثله؟ لأنك إذا كنت تحلمين بعلاقة معي تذكري شيئاً واحداً.. أنا شخصية مختلفةٌ تماماً عن خالي المريض. أعدك بهذا.

تصاعد الاحمرار تحت بشرتها، ثم تلاشى، ليتركها صفراء باهتة:

ـ أوه.. أنا واثقة من هذا.. لا، أنا لا أستهدفك.. وبإمكانك أن تستريح.. لأنني أكره الغرور الشديد في الرجال حتى وهم لطفاء مثلك.

ارتفع ذقنها، ولزمها قوة إرادة لهذا، لكنها ابتسمت للكراهية الباردة على وجهه وقالت:

ـ لا أحتاج إلى مالك.. لقد ترك لي دانيال ما لا أحتاج به لأحد، ولا تستطيع أن تقدّم لي أي شيء آخر أريده.

ـ لا؟ ألهذا اتخذت حبيباً عجوزاً؟ لأنك باردة؟

التقط معصمها ويدها تطير إلى وجهه ولوى بحركة بطيئة مؤلمة ذراعها خلف ظهرها وشدها إليه.

فكرت بمرارة المزيد من الألم، لكنها هذه المرة لم تقاوم.. فلا جدوى من المقاومة.. كما أنها تعرف أنه لن يؤذيها جسدياً. والتهديد الذي يمثله هو لمشاعرها، وإرادتها.

وعرف بالطبع، فهو أكثر ذكاء من أن لا يكتشف غضبها، مهما حاولت إخفاء الأمر عليه..

قال بصوت شرير:

ـ لا تحبين أن يدعوك أحد «بالباردة».. أتساءل لماذا؟ هل هذا قريب جداً من الواقع؟

همست ساخطة:

ـ أخرج.. لا أهتم لرأيك بي.. لا يمكنك احتقاري أكثر مما أكرهك، أيها المتعجرف المغرور بنفسك، المتكبر، والمتوحش.. من تظن نفسك؟ تضع نفسك على قمة الأخلاق بينما يعرف العالم كله أنك.. أنك..

قاطعها ببرودٍ مثلج: تابعي..

رمت برأسها إلى الوراء، تنظر إليه بكراهيةٍ ظاهرة.

ـ أنت تعرف ما أعني.. لكن بالطبع، الأمر يختلف بالنسبة لرجل.. أنا «فاسقة»، وأنت «خبير»! هذا وصفٌ يبدو أفضل بكثير.. ألا تظن هذا؟ الآن، أخرج من منزلي.

رد من بين أسنانه المشدودة:

ـ بكل سرور.. لكن أولاً، دعينا نرى كم اقتربت من الواقع.. أتسمحين؟

أخذت ناتالي ترفس، وتلوي برأسها بعيداً وبقيت للحظات طويلة مقطوعة الأنفاس، جامدة بين ذراعيه، لا تستجيب، لكن لا تقاوم.. تستمع إلى ما يحاول جسدها أن يقول لها.

رفع رأسه يبتسم لها، ويسخر بنعومة:

ـ كما قلت.. باردة.. يا للأسف.

ردت تكرهه أكثر:

ـ إذن يجب أن تفتش في مكان آخر عن امرأة غيري.

تراجع:

ـ ما من شك في هذا.. بالرغم من أن معظم المراجع تدفعنا للتفكير أن لا وجود لنساءٍ بارداتٍ، بل رجالٍ غير كفؤين.. ولسوف أدعك وشأنك الآن، ليس لأنني لن أتمتع بتذويب برودتك فأنا أجدك جذابة بل لأنني أشعر بالقذارة على بعد عشر أقدام منك..

ارتعشت ولو أنه كان لا زال يطوقها بذراعيه لأحس بارتجاج جسمها من جراء كلامه القارص.. أغمضت عينيها لحظة كي لا يرى ألمها، ثم رفعت ذقنها لترد ببرود:

ـ لا تزعج نفسك في هذه الحالة، بالقدوم إلى هنا مرة أخرى.. إذ تكفيني مخابرة هاتفية لأعرف عما تريد إخباري به!

ـ بكل سرور.. سأراك في مكتبي صباح الغد في تمام الحادية عشرة.. أيمكنك ترك عملك؟

ـ أوه.. أجل.. هذه ليست مشكلة.

كانت تلك الليلة ماطرة، واستمرت هكذا حتى اليوم التالي. كانت تسير في الشارع نحو محطة الباص، وتستمد الراحة من ألوان زهور الكاميليا الزهرية والحمراء، في كل حديقة تمر بها. كان اليوم يشبه أيام الربيع، مع أن هناك شهراً آخراً للشتاء بعد. وقد أحست ناتالي بوخز الحنين إلى موطنها.

كان شارع أوكلاند الرئيسي، كوين ستريت مزدحماً، واجهات المحلات مزهوة بموضة الصيف التالي. سارت ناتالي ببطء، تتطلع إلى واجهات كل محلات الكتب.. ونظرت إلى ساعتها، فأجفلت فلم يترك لها الوقت سوى خمس دقائق لتصل

إلى مكتب تشاد. ولحسن الحظ لم يكن بعيداً.. لكنها وصلت مقطوعة الأنفاس وغاضبة. لتقول لها موظفة الاستقبال بأن السيد غرايزر مشغول. وطلبت منها الانتظار.

جلست بأدب. وتجنبت نظرة موظفة الاستقبال المهتمة بها كثيراً. ونظرت خارج النافذة.

كانت أظافر أصابع موظفة الاستقبال تلمع وهي تطبع عدداً من الكلمات التي يستحيل عدّها في الدقيقة.. على أي حال، لن يستخدم تشاد سوى الأفضل. وربما هذه الفتاة واقعة في حبه..

ومرّ شيء ما جعل دماغها يعمل بسرعة، فأخرجت قلماً ولائحة مشترياتها لتسجل ملاحظات حول أشياء جديدة لسلسلة مناديل المائدة.. وانغمست في تسجيل كل شيء قبل أن تنساه، وفشلت في سماع صوت باب ينفتح.. ولم ترفع نظرها إلا بعد أن وقع ظل تشاد فوقها.

قالت متوترة: أوه.. مرحباً.

ـ صباح الخير.

كان ترحيبه بشكل رسمي جداً.. وضعت ناتالي اللائحة في حقيبتها وهي تقف.. تتمنى لو أنه لا يعلوها هكذا بطول قامته.. كل شيء فيه مخيف.

كان مكتبه كبيراً. بطاولة تناسبه من تصميم إيطالي أنيق. يلفه من الخارج شرفة صغيرة مزخرفة بحجارة منقوشة من العهد الفيكتوري.

سألها بلطف:

ـ هل لاقت إعجابك؟

تنهدت:

ـ أوه.. يا إلهي.. أجل.. إنها، وأنا أكيدة أنك تعرف هذا.. من صممها لك؟

ـ أمي.

وابتسم لدهشتها.. ثم قالت:

ـ تملك موهبة كبيرة.

ضحك.

ـ بالتأكيد.. أمي.. حسن جداً. لنبدأ العمل. أيمكن؟ هل راجعت لائحة المجوهرات ليلة أمس؟

ـ لا.. وهل يجب أن أفعل؟

ـ أجل. بما أن الرجل سيسلمها لك هذا الصباح من المفترض أن توقعي له إيصالاً بها. إذن أظن من الواجب أن تراجعيها.

ـ هكذا إذن.. حسن جداً. سأراجع اللائحة بوجود المجوهرات حين تصل.. ألا يجب أن يكون هنا الآن؟

ـ بالتأكيد، لماذا لا تجلسين فيما نحن ننتظره؟

كان المقعد مريحاً. لكن ناتالي أحست بوخز غير مريح يمر على بشرتها.. بدا تشاد محامياً بكل معنى الكلمة. ومسيطراً جداً. وهذا لم يعجبها.

قال وهو يدفع ورقة نحوها:

ـ قبل أن يصل هناك شيئان يجب أن نبحثهما.. أيمكن أن تقرأي هذه وتخبريني ماذا فهمت منها؟

كانت وثيقة معقّدة لها علاقة بمبلغ الائتمان.. قرأتها ناتالي كاملة وبعناية فائقة. ودفعت بالورقة مجددا إليه بعد ثالث قراءة. فأعادها وانتفض يستدير ليقف خلفها مباشرة. فتبخر تركيزها

فوراً.. ولزمها كل قوة إرادة لتجبر دماغها للتركيز على الوثيقة القانونية.

قال ينحني مشيراً إلى مقطع من الوثيقة:

ـ قد تجدين هذا معقّداً..!

ـ أوه.. أجل.. إنه كذلك فعلاً.

وأخذ الصوت العميق يشرح لها.. وابتعدت عنه بقدر ما سمح لها المقعد..

ـ كان دانيال مهتماً بهذا..

صمت قليلاً ثم أكمل بنفس اللهجة:

ـ لشعرك رائحة الزهور.

تنفست بحدة:

ـ إنها رائحة الشامبو.. أو رائحة الزهور.

ـ لا.. لقد لاحظت هذه الرائحة من قبل.

حبست أنفاسها.. وبدأ قلبها يخفق بضرباتٍ سريعةٍ ثقيلةٍ.. وتحركت اليدان اللتان كانتا تتابعان الجمل القانونية إلى شعرها. فقالت مذهولةً:

ـ لا.. تشاد.. أنا..

ـ بلى تشاد.. قولي نعم تشاد.

لم تستطع قول شيء، لكن رموشها انخفضت فقد كان يجري في عروقها نهر ذهبي من الأحاسيس.

جذبت رأسها إلى الوراء، وهي تدرك إلى أين ستأخذها مخيلتها النشيطة وشهقت تستخدم يدها لتدفعه عنها:

ـ لا!

* * *

www.liilas.com

٤ ـ رجل كالحلم

انطلق جرس الهاتف باستدعاءٍ متطفلٍ حادٍ.. فوقفا للحظاتٍ معا جامدين وكأنهما ضُبِطا يسرقان خزنة.

تركها تشاد فجأة، فترنحت ووقعت إلى الكرسي، وتلاشت المشاعر من عينيه وهو ينظر إليها، لتنكمش لدى رؤيتها الازدراء يحل مكانها.

مد يده إلى الهاتف: نعم.

قال بعد لحظة:

ـ سأكون حاضراً بعد لحظات.

وأعاد السماعة إلى مكانها: إنه الجواهري.

مررت يدها بتوتر في شعرها الذي أشعثته اليد التي كانت تمسك برأسها.. الشوق الذي كانت تحس به الآن لا شك أنه نوع من الإحباط، وهو يؤلمها.

إنها تشعر باحتقاره لها، ولا تتحمل أن ترى مجدداً التغيير في تعابير وجهه خاصة عند إدراكه لمن كان يعانق.

أشعلت هذه الفكرة دمها بالغضب، ورفعت رأسها عالياً.. هي لم تبدأ هذا.. ليس من حقه أن يعانقها في لحظة، ثم أن ينظر إليها بعدها وكأنها شيء كريه؟

سألها فجأة: أنت جاهزة؟

ـ أجل.

كان الرجل الجواهري لطيفاً..

وقعت ناتالي الوصل بعد أن راجع الأطراف الثلاثة اللائحة.. وظهرت موظفة الاستقبال لتصطحب الجواهري إلى الخارج مخلّفةً وراءها صمتاً غريباً.

قالت ناتالي بتردد، متجنبةً النظر إلى تشاد:

ـ حسناً.. شكراً لك، سأذهب الآن.

ـ سأوصلك إلى المنزل.

ـ لا.. سأكون على ما يرام.

ـ سأوصلك على أي حال، فلن تساوي ثمن كل قطعة على حدى من هذه المجوهرات كثيراً، لكنها كمجموعة باهظة الثمن..

قال هذا بلهجةٍ مقصودةٍ وبتعبيرٍ متحفظٍ على وجهه وبثقة بالنفس..

ـ سآخذ تاكسياً إذن.

ـ افعلي فقط ما أقوله لك.. أيمكن؟ وإلا سأجبرك، ولن يعجبك هذا..

ردت بخشونة: حسن جداً.

لم يقل شيئاً وهما في طريقهما إلى منزلها، يركز على قيادة السيارة. لكنه قال ببرودة عند باب المنزل:

ـ أشك في أن أراك لفترةٍ طويلةٍ.. فأنا مضطر للسفر إلى الخارج.

ـ أوه..

نظر إليها وقناعه ثابت في مكانه.

قال وكل كلمة سخرية بحد ذاتها:

ـ ألن تعانقينني وداعاً؟

هزت رأسها غير قادرة على كبح ارتجاف. فأردف: لا؟

كان يحمل حقيبة الجوهرات، فمد يده إليها بحدةٍ:

ـ هاك.. خذي ما لك.

ـ ضعها أرضاً.

وَضَعها واستدار ليذهب.

تملكها في الصباح التالي صداع أليم، وحرارة تجعل الحمى تبدو وصفاً قليلاً. التهب حلقها وأصبح جسمها متعباً واهناً.. وجمعت كل قواها لتنزل إلى المطبخ ولتُطعِمَ بيتسي.. واضطرت للاستراحة طويلاً قبل صعود السلم مجدداً.

لكن لو أن ذلك اليوم كان سيئاً، فالذي تلاه كان أسوأ.. فقد تطور السعال لديها فأمسى حاداً يؤلم رئتيها، تشعر مع كل حركة بأن رأسها سينقطع عن عنقها، ولم تجد القدرة على تجهيز طعامٍ لها.. وربما هذا ما تسبب لها بالمزيد من الإرهاق.

ابتلعت المزيد من الأسبرين، وشربت الكثير من الماء، وأمضت يومها كله نائمة، تستيقظ فقط لتسعل أو لتعطس. وأيقظها في وقت متأخرٍ من بعد الظهر رنين جرس الباب.. أملت أن تكون السيدة مونرو قد عادت من جيسبورن، فارتدت ببطء روبها وهبطت السلم بجهد كبير.

لم يكن الطارق جارتها.. بل كان تشاد، نظرة واحدة إليها جعلته يشحبُ، همست مسرورة جداً لرؤيته:

ـ إنها جرثومة زكام. . ظننتك مسافراً.

ـ عدتُ باكراً. . هذا ليس بالشيء البسيط.

التقطها بين ذراعيه يحملها إلى غرفتها:

ـ منذ متى وأنتِ هكذا؟

ـ أظن منذ يومين.

ـ هل ذهبت إلى طبيب؟

ضحكت لكن الضحكة انقلبت إلى سعال، وعادت إلى السرير قبل أن تنتهي النوبة لتتركها مقطوعة الأنفاس. وقالت مع ذلك:

ـ لا أظن أنني قادرة على الوصول إليه. . ألا تظن هذا؟

تمتم شيئاً من بين أنفاسه، ثم حملها مجدداً ليوقفها على الأرض. . كان الجدار بارداً على خدها، وأسندت نفسها إليه كالحالمة، وهو يجهّز السرير ويحضّره لها، قال:

ـ أنت بحاجة إلى حمّام. . لا. . دوش ساخن أفضل. . أقادرة على القيام به وَحدَكِ. . ؟

هزّت رأسها، لكنه قال لها:

ـ سأنتظر خارج الباب، واصرخي إذا احتجت لأية مساعدة.

حاولت الوقوف، لم تستجب عضلاتها لها، فنظرت إليه بتوسل أبكم. وسأل بخشونة:

ـ هل تناولت أي طعام؟

هزت برأسها نفياً، وآلمها هذا، فقالت:

ـ لا. . لكنني لا أشعر بالجوع. . حقاً تشاد.

ـ أنت أصغر سناً من تركك لوحدك. .

تمكنت من السير إلى الدوش دون دعمه. كانت المياه دافئة،

هادئة على جسمها المتعب. وأبطأت في تبليل شعرها. . وبدا لها فكرة جيدة أن تغسله لكن هذا أرهقها. .

قال لها وهي تخرج إلى غرفة النوم:

ـ لا أدري لمَ غسلت شعرك. . لكنه يجعلك تبدين في الثانية عشر من عمرك. . وهذا أمر جيد.

تنهدت، فأجلسها، وجفّف شعرها قبل أن يقول:

ـ حسن جداً. . أيمكنك ارتداء ملابس النوم؟

قالت كطفلة مطيعة: أجل.

ـ سأنزل إلى تحت لأُجري بعض الاتصالات.

طال بها الوقت، لكنها تمكنت من ارتداء ثوب النوم القطني. كانت حين عاد تسعل مجدداً، تمسح الدموع من عينيها بمنديلٍ مجعدٍ.

سألها:

ـ ألديك مجفف شعرٍ؟

ـ لا.

لمس خصلة قرب وجهها:

ـ يكاد يجف. . والآن إلى السرير. . أتشعرين الآن أفضل حالاً؟

أحست وكأنها في النعيم. . كانت المفارش باردة ونظيفة كجسمها النظيف. . وحافظت على توازن رأسها رغم دورانه، وابتسمت لتشاد:

ـ شكراً لك. . سأكون بخير الآن.

كذّب سعالها الحاد ما قالته لسوء الحظ، كانت مطوية

الجسم، بذراعين مكتفتين على صدرها تتنفس أنفاساً خفيفة مؤلمة.. قالت حين أحست به يقترب منها:

ـ يجب أن لا تفعل هذا، فقد تلتقط الجرثومة.

ـ أنا لا أمرض أبداً.. استلقي وسآتيك بشيء تشربينه.

غاب قليلاً، وعاد يحمل عند عودته صينية وتقفز بيتسي في أعقابه.. فقال بنعومة:

ـ كلي.. طبق البيض المخفوق طبق أشتهر به.. وسأغضب إذا رفضته.

لم تشعر خلال يومين بالجوع أبداً.. ما إن وضع الطعام أمامها حتى غمرها الإحساس بالجوع، وقالت:

ـ تبدو لذيذة، من أين جئت بالصينية؟

ـ من السيدة مونرو، لقد وصلت منزلها لتوها.

أكلت البيض المخفوق اللذيذ، وأنهته تماماً مع رنين جرس الباب.. فقال تشاد وهو يأخذ الصينية:

ـ هذا بلا شك الطبيب.

ـ أوه.

كان الطبيب في نفس سن تشاد تقريباً، ابتسم لها بلطف مهني، وأبعد تشاد بحزم والكلبة معه.. واستدعى، بعد عشر دقائق من الإصغاء وقراءة ميزان الحرارة وتفحص النبض، تشاد مجدداً. وقال بجد:

ـ إنها حالة التهاب رئوي سيئة، أما العطاس فسببه التهاب جيوب أنفية، إضافة إلى قلة الطعام.

أحست ناتالي بالذنب يتصاعد إلى وجهها.. لكن الطبيب

تابع:

ـ سأعطيك وصفة طبية، مضاداً للالتهاب وأقراصاً للألم وشراباً للسعال.. وستبقين في الفراش ليومين آخرين على الأقل.. وفي داخل المنزل، وإذا كان لديك التفكير السليم ستمكثين حتى نهاية الأسبوع.. وكلي!

تركها دون اهتمام بشكرها له، وسمعته يحدث تشاد في الطابق الأسفل لبضع دقائق، ثم جاء صفق الباب الخارجي، ووقع أقدام تشاد على السلم.

قال:

ـ سأذهب لأحضر لك الدواء. وجدت مُفتاحاً في حقيبتك لذا سأدخل لوحدي.

هزت رأسها إيجاباً.. قالت وهو يستدير ليذهب: تشاد.. شكراً لك.

نظر إليها طويلاً نظرة كانت تحاول إيجاد معنى لها حين تغلب عليها النعاس.

كان للأقراص تأثير غريب عليها، جعلت رأسها أكثر تشوشاً مما كان.. لكنها استعادت وعيها في مرحلة ما من الأمسية لتقول:

ـ لا يمكنك البقاء هنا تشاد.. يجب أن تعود إلى بيتك.

رد بخشونة:

ـ لأقضي الليل كله وأنا قلق عليك؟

ـ لكن أمك.. ليس من مكان هنا لك لتنام فيه.

ـ اتصلت بأمي، أما النوم فهناك الصوفا.

هزت رأسها بارتباك، جعلتها الدموع الساخنة تحس بالإرهاق، وهمست:

ـ أنت لطيف جداً.

ـ لطيف؟

كانت الكلمة أشبه بالانفجار أو كأنها قد أهانته:

ـ لا أنا لست لطيفاً عزيزتي..

نظرت إليه بجبين مجعدٍ علّها تحاول النظر إلى ما يخفي قناعه الأسود.. سحرتها عيناه الزرقاوان المليئتان بأنوارٍ صغيرة متحركة.. مدت يدها النحيلة والمرتجفة، لتمسك بيده الحارة القوية:

ـ بلى.. أنت لطيف.

جذبتها إليها بحيث استطاعت وضعها بين خدها والوسادة. ونامت هكذا لتستيقظ مرة واحدة فقط خلال الليل وحلقها جاف كأنه مليء بالرمال الخشنة.. وكان صوته هادئاً رائعاً ويداه لطيفتان وهو يجلسها في السرير ليعطيها أقراصاً مسكّنة للألم كان قد وصفها لها الطبيب.

تنهدت قائلة: لا تذهب.

ثم نامت مجدداً، لتستيقظ في الصباح وقد انكسرت حدة الحمى ولتجد رأسها بثقة على كتفه وتضمها ذراعه إلى جسده.

أحست بحلقها يؤلمها لا تخرج الكلمات منه.. تنفست بصعوبة وحذّرها الصفير بأن رئتيها لا زالتا تقاومان الإصابة.. لكنها ما شعرت في حياتها يوماً بسعادة مماثلة.. كانت هذه اللحظات ثمينة جداً لها، وبقيت مستلقية بهدوء وعيناها

مغمضتان. ذراعه فوقها مقوسة بحيث تستريح يده إلى خصرها. وخيّل إليها بأنها قادرة على الإحساس بكل طرف أصبع منها على حدة. وتساءلت بخيالٍ واسعٍ ما إذا كانت ستحمل أثرها مدى الحياة..

غبية! من غير المجدي أن تطلقي العنان لخيالك هكذا!

ثم غفت... كانت وحيدة حين استيقظت مجدداً. استلقت لعدة لحظات بهدوء، تتساءل لماذا تحس بالهجران.. إلى أن عاودتها الذكرى، فأدارت رأسها.. ولم تجد أثراً له.

أكان ذلك حلماً؟

كيف يمكنها أن تبتعد عنه وعقلها الباطن يتلاعب بها هكذا؟ تقلّبت مراراً في الفراش، وأدارت رأسها إلى الوسادة متأوهة.. لكن لا.. لم يكن حلماً..

وفكرت بمرارة: من الخطر أن تصبح مدمنة على هذا، كما من الخطر أن تقع ضحية غرامه.

كانت قد غسلت وجهها حين صعد الدرج، ونظفت أسنانها، وأخذت الدواء الموصوف لها، وجلست على جانب السرير لتمشط شعرها الملبّد تماماً، وأخذت تكشر ألماً مع كل تشابك للمشط في شعرها.

وضع الصينية على خزانة الأدراج المنخفضة:

ـ هيا.. دعيني أفعل هذا.

ـ لا.. أستطيع أن أفعل هذا بنفسي.

بدا نافذ الصبر.. وتناول فرشاة الشعر من الخزانة:

ـ هذه ستكون أسهل.

أرخت المشط من يدها، واضطرّها خجلها المفاجيء أن تستدير عنه.. وأحست بجانب السرير ينخفض وهو يجلس خلفها.. أبعدت ببطء يدها عن شعرها، لتضع المشط في حجرها.. كانت لمساته واثقة. وقال بعد لحظات:

ـ غير معقول.. هل هذا تجعيد اصطناعي أم طبيعي؟

اهتز صوتها:

ـ طبيعي.. لقد ولدت وشعري هكذا.

قال بشيء من السخرية:

ـ كنتِ على حق، الصوفا لا تطاق، لذا عدت إلى هنا لأستريح، ولم يبدُ عليك الممانعة.

لم تستطع منع نفسها من الالتفات لترى ما يعني.. كان ينظر إليها بفم نصف مبتسم وبتسلية ساخرة، كرهتها. وقالت له:

ـ رجوت منك عدم البقاء.

ـ كلامك سخيف.. لقد تمتعت بالنوم في فراشك مع أنك كنت تسعلين كثيراً.. وكنت تتحركين بارتياح بين ذراعي.

صاحت غاضبة للكلمات الساخرة:

ـ كنت نائمة.

ـ أجل، كنت نائمة ولا شك عندي أنك كنت سترحبين بأي كان بنفس الحماس.. لا.. لا تبكي، ستفسدين شهيتك للطعام.. هل ستتناولينه أم أجبرك؟

جرت الدموع على خديها فمسحتها بظاهر يدها، بينما فتشت اليد الأخرى في جيب روبها عن منديل.. وأصدر تشاد صيحة سخطٍ وتوترٍ، واختفى إلى الأسفل، وكانت حين عاد حاملاً كرسي

الخياطة قد عادت إلى الفراش تنفخ أنفها.

ـ لماذا لا تشترين بعض الأثاث بحق الله؟ لقد أرسلت لك دفعة مقدمة.

ـ اشتريت ما هو ضروري..!

ـ بالنسبة لي طاولة قرب السرير ضرورية.. سأذهب الآن، لدي موعد مبكر، لكنني سأعطي السيدة مونرو المفتاح وستأتي لتراك.

رفعت إليه وجهها مخيبة:

ـ لكنني لا أريدها أو أحتاجها.

ـ لقد عَرَضت صُنع غداء لك.. سأعود حوالي السادسة مساءً.. وتذكري ما قاله الطبيب، فلا تغادري السرير!

ـ سأغادره ساعة أشاء.

احمرت غضباً.. وقفزت الشرارات الذهبية في عينيها:

ـ لا يمكنك الظن أنك قادر على التسلط عليّ لمجرد أنني مريضة.. أنا لست..

وضع اصبعه على فمها، قال:

ـ ستفعلين ما أقوله، أو سأستأجر ممرضة لتلازمك. كوني فتاة طيبة.. فأنت لا تريدين أن أقلق عليك أليس كذلك؟

قدرت بعد أن رحل وهي تأكل «الغريبفروت» والتوست، أن ما قاله كان مجرد مزاح.. لكنها أدركت بأن عليها أن تضبط نفسها.. كان تشاد في الواقع مع كل عجرفته وسيطرته اللامتناهية يهتم ويحب الناس.. وتذكرت كيف ظهرت المعجزة في ليونة صوته حتى الرقة حين ذكر أمه، كما أنه أحب دانيال بما يكفي

ليتخلى عن الكثير من وقته ليسليه. وأحب بيتسي كذلك.

كانت القهوة لذيذة منعشة. تذكرت وهي تشربها أمسية كان دانيال لا يزال حياً فيها حين ذكرت أخبار التلفزيون جريمة قتل مزدوجة، ومخططة عمداً.. فأصابها الرعب وتساءلت عن نوع ذلك الإنسان القادر على القيام بشيء فظيع كهذا. وهز تشاد كتفيه، يقول متشدقاً:

ـ إنه إنسان عادي، ناتالي.

فقالت معترضة:

ـ الإنسان العادي لا يقتل.

ـ يسري في دم معظم الناس بذور الإجرام..

ضحك لرفضها تقبل هذا، وقال بصوته الناعم:

ـ حسناً.. فلنستخدم مخيلتنا. لا أظن أن عاطفة الأمومة تتغلب عليك بشكل خاص، لذا فلنجرب طريقة أخرى.. لا بد من وجود شخصٍ تحبينه وبيأس محموم. شخص يعتمد عليك؟

آلمها تعليقه على عدم امتلاكها لعاطفة الأمومة.. وتابع تشاد كلامه بصبرٍ:

ـ هل تتصورين طفلك مثلاً.. وهو المتعلق بيأس بك يهددكما رجل بسكين. وتعرفين أنه قادر تماماً على استخدامها.. ولنقل بأنه زوجك، لا والد طفلك، وقال إنه سيقتلكما معاً.

توقف صوته العميق متسائلاً.. يخفي وراء برودته لهجة مختلفة. وأيقنت بأنه اختار القصة متعمداً، ليوصل إليها مدى احتقاره لها.. وتابع دون رحمة:

ـ وكنت تعرفين مسبقاً مدى غيرته وعذابه لدرجة أنه قادر على

تنفيذ تهديده.. ويتواجد في درج قريبٍ من يدك اليمنى مسدس محشو. وطفلك يبكي متعلقاً بساقيك.. وهو يتحرك نحوك.. فماذا تفعلين؟

وقفت الشعيرات الرقيقة على ظهرها بخوف فقالت لتسكته، أكثر من أي شيء آخر:

ـ أُطلق النار عليه طبعاً.. لكن ليس لأقتله بل لأوقفه لو استطعت. على أي حال، لقد أثبت وجهة نظرك.

ابتسم يراقبها بعينين نصف مغمضتين:

ـ لا.. بل أنت التي أثبتها، فأي عمل يمكن تفسيره يكون مبرّراً.. يعاني الكثيرون من الندم وعذاب الضمير لأن هذا أسهل بكثير لتبرير أعمالهم. وإلا كيف تظنين بأن شخصاً ما قادر على العيش مع ضميره؟

ابتسم دانيال بعد خروجه وقال:

ـ أتساءل لمَ كل هذا السيناريو؟

ـ لأنه يكرهني.

ـ أتظنين هذا؟ أعتقد أن السبب هو في أنه ينظر إليك كامرأة خطيرة جداً.. بالنسبة له على أي حال.

وعادت إلى حاضرها الآن، وفنجان القهوة فارغ في يدها، أخذت تفكر بأن دانيال كان له بعد نظر ثاقب، فهي يومها لم تكن تدرك الجاذبية القسرية التي قفزت بكل قوتها إلى الحياة منذ أول لقاء لهما.. لم يخطر ببالها أن هذا التجاذب يمكن أن يكون مفعماً بالكراهية.

ماذا لو تبوح له بسرها، وستعطيه رسالة دانيال إثباتاً ودليلاً

قاطعاً.. وكم ترغب أن تراقب وجهه وهو يدرك كم كان مخطئاً..

كانت بعد ظهر ذلك اليوم مستلقية ناعسةً في السرير حين دخلت عليها السيدة مونرو.. ونادت:

ـ هذه أنا ناتالي.

جاءتها بالشاي، وجلستا تحتسيانه وتتبادلان الحديث بهدوء حول سكان الشارع. ورن جرس الباب، فقالت السيدة مونرو:

ـ آه.. أجل.. لقد قال لي السيد غرايزر أن أتوقع هذا.. أيمكن أن ترتدي الروب وتنتظري قليلاً في الحمام؟

ـ لكن من...

ـ إنها مفاجأة.

جلست ناتالي على حافة المغطس تستمع إلى أصوات رجال قادمة من غرفة النوم.. بدوا أنهم يتحركون لبعض الوقت.. ثم لم يعد هناك سوى وقع أقدام السيدة مونرو.. وجلست ناتالي بهدوء كالطفل المطيع بدلاً من الإسراع إلى الخارج لترى ماذا يجري، لا شك أن هذا من تأثير الحبوب، فهي بالتأكيد تجعلها مخدرة. ما إن استجمعت قواها لتقف حتى فتحت السيدة مونرو الباب تعلو الإثارة وجهها.

ـ تعالي ألقي نظرة.

لم تصدق ناتالي في البداية عينيها.. كان الأثاث الذي اشترته قد اختفى.. وحلّ مكانه سرير مزدوج جميل، على جانبيه طاولتين صغيرتين، وطاولة زينة عليها مرآة عظيمة. كان الأثاث جميلاً، ومرتفع الثمن.

قالت بضعف: أوه.

قالت السيدة مونرو بلهفة وهي تساعدها لتصل إلى السرير:

ـ ما كان يجب أن أبقيك خارج الفراش هكذا. لكنني أردت أن تكون مفاجأة كاملة.. استلقي الآن، وسأحضر لك فنجان شاي آخر.

ازداد مع ضعفها، غضبها لما فعله تشاد، واستمرّ بداخلها.. عندما حان وقت قدومه، كانت تجلس في السرير مستقيمة.. عيناها تلمعان، يعلو اللون الأحمر القاتم خديها.

كان أول دلالة على وصوله نباح بيتسي المتلهّف.. ثم أصوات حديثه مع السيدة مونرو، وثبّتت عينيها بتركيز مؤلم على الباب.. لكن كل هذا كان لا يقارن مع المشاعر التي أحسّت بها لسماع صوته من الخارج:

ـ سآخذ بيتسي في نزهة الآن ناتالي.

صاحت عبر أسنانٍ مشدودةٍ:

ـ أوه! أوه! أنت.. أنت.. خنزير!

لكنه كان قد ذهب.

حين عاد بعد نصف ساعة كانت قد استحمت وبدّلت ملابس نومها، وأصبحت مستعدة فكرياً وجسدياً للقتال.

ظهر في الباب، طويلاً مسيطراً، تعابير وجهه ضجرة. وقال ببرودة:

ـ لن أتشاجر معك.. قد أفعل في أي وقت آخر، ما عدا الليلة.. أنت لست بصحة تسمح لك بالجهد، وسوف لن أقبل شيئاً سوى الأفضل منك.

www.liilas.com

ردت بشراسة:

ـ لن تحصل على شيء مني.

ـ ليس الليلة.. إذا أردت بإمكانك مكافأتي حين تستعيدي قوتك.. ولن أقبل إلى ذلك الوقت بكلمة واحدة.

صاحت:

ـ لماذا سرير مزدوج؟ إذا كنت تظن..

تركها ووقف:

ـ اهدأي، يا نافثة اللهب.. واسترخي.. لن أقاتلك الليلة وهذا أمر نهائي.. أنفك أحمر، وعيناك متورمتان، واضح أن حرارتك لا تزال مرتفعة، وتسعلين بصعوبة جداً.. وأنا لست «سادياً».

تمتمت مرتبكة من تقييمه الصحيح لمظهرها:

ـ كان بإمكانك أن تخدعني.

نام تلك الليلة على الصوفا، وذهب في الليلة التي تلت إلى منزله لأن وصفة الطبيب أعطت مفعولها وقد تماثلت للشفاء.

استلقت ناتالي على السرير الذي اشتراه لها رغماً عنها، تُصغي إلى أصوات الليل. كان تشاد ومنذ وصول السرير، مؤدباً ببرودة جداً. كانت ذكرى ذلك العناق الذي تبادلاه راسخة في أعماق عينيه.. وفكرت بعلاقتهما وهي تنزلق إلى النوم.. إنها كالحبال تشدهما إلى بعضهما برباطات لا يريدها أي منهما.. مع ذلك فهما لا يقدران على الخلاص منها.

* * *

Aml

٥ ـ ستكونين لي

عاد تشاد بعد ظهر يوم الجمعة، حاملاً معه الوثيقة لتوقعها ناتالي.. وأوحت لها نظراته بأن الهدنة التي فرضها مرضها قد انتهت. قال لها بعد انتهائه من قراءة الوثيقة:

ـ هل أنت واثقة أنك لا تريدين تكليف محامٍ خاصٍ ليتفحصها لك؟ فقد أغشك دون أن تعلمي!

ـ أشك في هذا.. فقد كان دانيال يثق بك كثيراً..

لم يتفوه بشيء، لكن شيئاً ما لمع من تحت رموشه الكثيفة.. وتحركت الكتفان العريضتان بعد لحظات:

ـ وقّعيها إذن..

فوقعتها.. وعلق شيء ما في حلقها فابتلعت ريقها غصباً. وقالت بأنفاسٍ متقطعةٍ: أترغب بفنجان قهوة؟

ـ لا.. شكراً لك.

ـ إذن.. شكراً لك.

ـ على ماذا؟

تنفس بحدّة. خافت من النظر إليه، وقالت بسرعة:

ـ لأنك كنت لطيفاً معي حين كنت مريضة.

ـ لطيفاً؟ ذلك لم يكن لطفاً ناتالي.. ولا تتظاهري بالسذاجة

فالمرأة التي تبيع نفسها لرجلٍ خرفٍ عجوزٍ، لا يحق لها أن تتبنى مواقف البراءة.

إنه يسعى لمعركة.. كان على مظهره وحشية أفلتت من كل رباطٍ، أخافتها.. فتحت فمها لترد الازدراء بازدراء مماثل، لكنها رأت نظرة الانتظار الغريبة في عينيه، وأدركت مع رعشة الخوف، أنها لن تستطيع.. فردّت بهدوء:

ـ لكنك كنت لطيفاً.

واستدارت نحو الباب لتُظهر بوضوح أنها تريد رحيله. لكنه قال:

ـ إذن.. ربما أستحق بعض المكافأة على لطفي هذا..

ـ لا تزعج نفسك.. فأنا أعني ما أقول.. دعني وشأني فقط.

ـ أفكر أحياناً بأن ضربك قد يفيد كثيراً.

ـ جرب، وسترى أين يصل بك هذا.

تصاعد التوتر مع لحظات الصمت، لكنها رفضت النظر إليه.. قال بعد صمتٍ، متعالياً:

ـ حسن جداً إذن.. تمتعي بالإشفاق على الذات.. وأرجو أن تكوني في مزاجٍ أكثر تعقلاً حين أراكِ في المرة القادمة.

سمعت وقْع أقدامه، خفيفة لرجلٍ يماثل حجمه وقوته.. قال عند أسفل السلم شيئاً لبيتسي ثم صفق الباب.

لم تأتِ الدموع إلا بعد سماعها صوت سيارته يبتعد..

لكن تعليقه حول الإشفاق على الذات كان يمنعها من الانغماس في البكاء.. وبدت في النهاية مصابة بصداعٍ وتورم في العينين.. استحمت وغسلت شعرها.. أعدت لنفسها حليباً ساخناً

وأخذت قرصين من الأسبرين، قبل أن تستلقي في سريرها لساعاتٍ وهي تفكر.

لا..! لا تحبه.. ولن تحبه أبداً.. فالحب لطف ورقة، مشاركة وعطاء. وما تحسه نحوه هو مزيج زئبقي مجنون من السحر والرغبة والكراهية.

ارتجفت وهي مستلقية في سريرها تفكر به، وأحست بألمٍ واشتياقٍ.. وهنا يكمن الخطر.. الخطر في المشاعر التي تمدّد جذورها كالجوع المزمن لا يمكن لأحد السيطرة عليها. مع ذلك، يجب أن تتعلم طريقة إخمادها، حتى لو لم تستطع شيئاً أمام الجاذبية نحوه.. فلو استسلمت لمشاعرها، سينتهي بها الأمر إلى أن يستغلها، ثم يتخلص منها.. وفي هذا احتقار للذات وفقدان للثقة المريرة، وعذاب للضمير المتراثي لها مسبقاً.

لذا، كانت مسرورة لأنها كانت في الطابق الأعلى حين رن جرس الباب في اليوم التالي، ومسرورة أكثر لأنها تمكنت من كبح جماح بيتسي قبل أن تنبح وكشفت نظرةٍ سريعةٍ من النافذة وجود سيارة تشاد، فوقفت بيدين ملتفتين حول عنق الكلبة، بالكاد تتنفس، آملة منه أن ينصرف.

رنّ الجرس مراتٍ عديدة، قبل أن تسمع وقع خطواته السريعة على الرصيف، فاسترخت.. لكن ليس طويلاً.. فقد جاء صوت السيدة مونرو واضحاً:

ـ صباح الخير سيد غرايزر.. إنه يوم جميل، أليس كذلك؟

ـ جميل جداً.. أخبريني هل رأيت الآنسة كونراد وهي تخرج؟

ردّت العجوز بعفوية بريئة:

ـ لا.. لقد أخذت بيتسي في نزهة هذا الصباح.. لكنني على ثقة بأنها في المنزل الآن.. إنها لا تخرج كثيراً، وتعرف هذا.

ـ أعرف.

شيء ما في صوته جعل ناتالي تتصلب، وجاء صوته أكثر ارتفاعاً ووضوحاً وهو يكمل:

ـ لم تكن على ما يرام حين تركتها بالأمس، وأتساءل ما إذا..

وقعت السيدة مونرو بفخه الذكي:

ـ أوه! أتظن أنها مرضت مرة أخرى؟ ماذا علينا أن نفعل؟

ـ يمكنني كسر القفل.. أو ربما.. لا، لا أظن أننا يجب أن نستدعي الشرطة.. مع ذلك، لو دخلت فهل تظنين أنك قد..

ـ أوه.. بالطبع.. يلزم المرء أسابيع عدة ليشفى من أي ڤيروس يلتقطه في مثل هذا الطقس.. يا للطفلة المسكينة، قد تكون أصيبت بنكسة جديدة..

صرّت ناتالي على أسنانها، تدرك أنه لن يعطيها فرصة لتتجنبه. وأطلقت بيتسي من يدها في اللحظة التي رن فيها جرس الباب مجدداً.

ـ آه.. أنت هنا!

كانت نظرته الزرقاء المليئة بالحيوية، وقحة ومتسلية ببرودة.

سألت السيدة مونرو بلهفة حقيقية:

ـ هل أنت بخير؟ بدأنا نقلق.

تمكنت ناتالي من الابتسام وهي تنفي أي أثرٍ للمرض، ودعت

جارتها للدخول لشرب الشاي بعد الإدعاء أنها لم تسمع الجرس. لكن السيدة مونرو اعتذرت، فأمامها بضعة أشياء لتنهيها في المنزل.

هذا لم يترك سوى تشاد أمامها.. ونظر إلى ناتالي.. ثم قال بتحفظٍ مثلج:

ـ لا تفعلي هذا مرة أخرى، فأنا قادرٌ على كسر القفل لو اضطررت.

ـ لماذا لا تفهم؟ لا أريد رؤيتك!

ابتسم بسخرية:

ـ لقد أمضيت وقتاً طويلاً من ليل أمس في التفكير..!

ـ أوه..

ابتسم ثانية، وتقدم من الصوفا ليجلس عليها:

ـ أجل.. تعالي واجلسي إلى جانبي ناتالي.

كان متعجرفاً، يأسر عينيها بتسليةٍ ساخرةٍ.. لكن تحت تلك السيطرة الباردة على النفس، كان غاضباً.

ـ ناتالي الماكرة.. أم أناديك ناتاليا.. إنه اسم جميل.. وغير اعتيادي، اسباني، كما قيل لي.. هل أخبرك ماذا قررت بشأنك؟

ـ وهل يمكنني أن أمنعك؟

ـ لا.

لم يكن مستعجلاً للبدء في الكلام، بل كان يتمتّع بلحظات السيطرة هذه. لكنه حين تكلم، عاد إلى خشونته، وإلى طريقة المحامي المجرد من العاطفة:

ـ كنت مندهشاً للإرث الذي تركه لك دانيال.. وقد أصرّ حين اقترحت عليه أنك قد تفضّلين المال، على أن تذهب مجوهرات جدته لك.. وتساءلتُ عن السبب! على أي حال، لم تكن قيمتها كبيرة، وبما أن ابنته أنا، كانت ستبيعها، قررتُ أنه ربما وعدكِ بالجواهر، وأن هذا كان إذعاناً لطمعك.. لكن الأمر أثارني بما يكفي لأن أبدأ بالبحث عن شهادة ميلادكِ.

ـ لكن.. هذا عمل غير قانوني!

ـ صحيح.. لكنني لم أكن أنوي استخدام هذا لأي غرضٍ غير قانوني.. كانت المعلومات عند عودتي إلى المنزل ليلة أمس قد وصلتني عبر البريد.. كان اسم أمك فيها، دون ذكر اسم الأب، واسمك دون أدنى شك ناتاليا، وهو للصدفة اسم جدة دانيال.. أليس هذا مثيراً للاهتمام؟

قالت بخفة:

ـ أنا واثقة أنك لن تستطيع الصبر لإخباري.

ـ هكذا، تحدثت إلى أمي وهي تملك ذاكرة قوية.. قالت إن دانيال، منذ ما يقارب العشرين سنة، كان له سكرتيرة تدعى ڤيوليت كونراد.. وهذا ليس صدفة.. ألا توافقينني على هذا؟

لم ترد.. فأكمل:

ـ كانت سكرتيرته جذابة جداً، امرأة رائعة، وكان قد ترمّل منذ فترة قريبة.. وعرفت العائلة بالعلاقة فحوّلت حياته إلى جحيم، إلى أن تخلّص من السكرتيرة. تذكر أمي هذا جيداً لأن العائلة كانت متشدّدة جداً ضد ڤيوليت تلك.. ويمكن للمرء أن يرى سبب موقف العائلتين.

قالت متصلبة:

ـ تهنئتي لك.. ماذا تريد أكثر؟

رفع ذراعيه ليضعهما تحت رأسه:

ـ حسناً.. هل تتزوجينني ناتالي؟

حاولت مرتين أن تتكلم، كان العمل الآلي لدماغها مغلقاً.. وحين استعادت صوتها، كان رفيعاً وغاضباً.

ـ لا تكن سخيفاً.

استدار رأسه وبدا وكأنه سيقتلها:

ـ لماذا؟ أنا لا أرضى بأن أظلم فتاة ساذجة مثلك دون تحمّل النتيجة.. هذا ليس أسلوبي، وتعرفين هذا.

ـ حسن جداً.. ستضطر.. ولأنه لا سبيل لأن أتزوجك فأنت مضطر للتعايش مع الفكرة، لكن لا أستطيع أن أفكر بشخصٍ مثلك ولا يمكنني الزواج به.

ردّ عليها بنعومةٍ، رافعاً نفسه على مرفقه:

ـ حقاً؟

أكّدت:

ـ حقاً!

بدا صوتها طبيعياً. وكانت تستشعر السعادة حين تبددت هذه السعادة بتعليقه التالي:

ـ ولماذا؟ لقد اكتشفنا بأننا متناسبان في أشياء رئيسية، وأظنني أرغب في إكمال الطريق!

مدّ يده ليتلمس وجهها، فشهقت، ودفعت عنها اليد المثيرة لأحاسيسها.. فقال بكراهية:

ـ أرأيت؟

سألته غاضبة:

ـ وهل تخطط للزواج بي إرضاءً لرغبتك فقط؟

قال ساخراً، مقاوماً كل محاولاتها للخلاص:

ـ ليست بفكرةٍ سيئةٍ.

ـ بل إنها.. فكرة سيئة. أنا لست.. أنا لن..

كانت محبطة، ساخطة أكثر من أن تستطيع التفكير.. رنّت ضحكته الخشنة في أذنيها وهو يرفع رأسه لينظر إلى وجهها الأحمر.. أدارت وجهها عنه في دفاعٍ متحدٍ، غبي. تحاول بجهدٍ دفع دماغها إلى التفكير.

قال:

ـ بل أنت.. وستكونين لي.. أنتِ حقاً ساذجة.. صحيح كنت غاضباً، لكنني منذ رأيتك أول مرة مع خالي، وأنا منشوٍ إليك.. وكرهت نفسي لضعفي، لكن مع ذلك، آمنت أنك لست سوى مزعجة رخيصة، تستخدمين صِباكِ ونضارتكِ المبهرة لإغواء رجل عجوزٍ.. ولم أستطع إبعادكِ عن تفكيري، ولا من دمي.

آلمتها كلماته لأن هناك رنة غريبة في صوته تكشف مدى غضبه من أن يعترف بضعفه.. وقالت بخشونة:

ـ حتى ولو كنت.. ما ظننته بي.. لم يكن من حقك أن تقول لي ما قلت!

تردد قليلاً:

ـ أتظنين أنني لا أعرف هذا؟

تسللت أصابعه من معصمها الرقيق لتلامس يدها، كانت

لهجته حين عاد للكلام، ناعمة، وباردة.

ـ لقد قلتُ لك إنني آسف.

أوقفته ضحكتها المخنوقة:

ـ ما الأمر؟

ـ متى كان هذا؟ أنت لم تعرض عليّ أي اعتذار.. لا أذكر قولك أبداً بأنك آسف.

ـ تعالي واجلسي..!

انتظر إلى أن جلست إلى جانبه، ثم ركز كتفيه على ظهر الصوفا، ثم قال بوقارٍ:

ـ إذن أنا آسف لهذا أيضاً.

حرّكت غريزة الأنثى فيها شعوراً بأن ما يأسف عليه تشاد حقاً لم يكن تأثير أقواله عليها، فهو لا يزال يمقتها، ويبدو هذا جلياً في رنة صوته، وتعرف لماذا.. أصبحت تفهمه خلال الفترة التي تعرفت إليه فيها.. تفهمت كل شيء عنه خاصة خلال الأمسيات التي كان يقضيها مع دانيال.. ورغم هذا لم تكن تدرك أنها كنت مفتونة به.

وتعلّمت قبل أي شيء آخر أن أكثر الميزات التي يُعجب بها، ويجدها مرغوبة وضرورية، كانت السيطرة على النفس.. كانت هذه بالنسبة إليه حجر الزاوية لحياته.

كان اعتذاره مجرد استرضاء لضميره، كما كان عرضه الزواج بها، لا شك أنه يظنها حمقاء، إضافة إلى أنها لا تستأهل الثقة بها.

ـ ناتالي؟

ارتجفت وأدارت رأسها إليه لتقول بخشونةٍ:

ـ أوه.. أقبل اعتذارك.. لكنني لن أتزوجك تشاد..

أردفت ساخرة:

ـ تأخر الوقت ليؤنبك ضميرك.. مهما كان الأمر فتأنيب الضمير ليس بالأساس الصالح للزواج.

لن يتوسل إليها بالطبع، ولن يجادلها كذلك.. فقد أدهشه رفضها المصمم وأغضبه في آن واحد.. وكان من الواضح أنه من النادر رفض طلب له.. خاصة وأنه طلب زواج.. حسناً.. تفهم هذا.. لا شك أن هناك العديد من النساء اللواتي يتلهفن ليكنّ زوجة له..

ـ هل هذه كلمتك الأخيرة ناتالي؟

هزّت رأسها، وقالت بوقارٍ:

ـ لن ينجح هذا الزواج.. وعندما أقرر الزواج أنوي أن يكون زواجاً أبدياً.. ونحن لا نحب بعضنا.. فأي نوعٍ من الزواج سيكون؟

ـ من النوع الذي يعتبره أكثر المخلوقات طبيعياً.

نظرت إليه، لكنها لم تجد شيئاً لتقرأه على وجهه.. فقالت بفمٍ جافٍ:

ـ أظن أنه من الأفضل رحيلك!

وذهب..

وقفت بعد أن أغلقت الباب خلفه، لفترة طويلة تحدّق في الغرفة، وعيناها مغشيتان فوق فمٍ محمرٍ ومرتجف.

إنه يريد الكثير.. لقد لاحظت نظرة التملك التي نظر بها إليه

وهو يخرج..

لن يكون لهما مستقبلٌ.. حين يبلغ الجنون ذروته.. سيبقى لهما كأسٌ فارغ من المشاعر الميتة وسيمزّقان بعضهما إرباً.

جلست قبل أن تخلد إلى النوم تلك الليلة قرب النافذة تراقب نقاط المطر الفضية وهي تضرب الزجاج، وتستمع إلى أنين الرياح الخافت..

فكرت أن كل ما يريده تشاد هو استسلامها الكامل.. وقد جعلت غريزة السيطرة والتملك فيه من المستحيل عليه أن يتقبل فكرة الزواج الحقيقية وهي العلاقة التي تضم الزوجين برباط الحب والثقة، ثم الرغبة.. أي مستقبلٍ لهما معاً يجب أن يكونا فيه متعادلين، لا فرق بينهما سوى واقع أنها أنثى وأنه رجل.. وإذا لم يستطع الفهم أنها بحاجة إلى تقبّله لهذا الواقع، بقدر حاجتها إليه.. إذن لا مستقبل أمامهما معاً.. كانت لا تزال تراه كرجل يفتنها فقط.. أما كلمة الحب فلم تخطر ببالها ولو لمرةٍ واحدةٍ.

* * *

www.liilas.com

٦ ـ وجوه الكراهية

مرّت أكثر من عشرة أيام ولم يقترب منها.. ولم تتوقع منه أن يفعل.. فما حدث كان صدمة له ولها. لقد كان بحاجة لأن يستوعب سبب رفضها عرضه للزواج. وسيكون هذا وقتاً مريراً له.

أشغلت نفسها في الخياطة والشوق يكبر في قلبها نحوه، تحادث نفسها وتعاند أحاسيسها آملة عدم رؤيته مجدداً.

أوصلت في يوم ممطر لفافة بضائع إلى محل، وكانت عائدة مسرعة إلى موقف الباص، تتجنب قدر المستطاع المجانين غير القادرين على السيطرة على مظلاتهم.. كانت السماء تمطر منذ عدة ساعات والميازيب تتدفق بالماء. كان الجميع متجهماً باستثناء صبيّ صغير كان يرتدي «جزمة» صفراء، ويقفز بمرح في كل بركة ماء صغيرة تصادفه.. كان على أمه مظهر من سئم محاولة منعه.. لكن حين التقت عينا ناتالي الضاحكتين بعينيها، ضحكت بدورها.

كانت حادثة صغيرة لا أهمية لها، لكنها أدفأت قلب ناتالي وأعطت خديها بريقاً كان مفقوداً منهما لبعض الوقت.. فجأة اندست يد تحت مرفقها وهمس تشاد في أذنها:

ـ لو تزوجتني لأنجبت صبياً مثله.

سلبتها الصدمة قدرتها على الكلام، وأدارت رأسها تنظر إليه.. كانت قسمات وجهه أكثر حدة، ابتسامته متوترة، فقدت عيناه اللون الحيّ الذي يجعلهما ساحرتين.

بدأت: قلتُ لك..

لكنه وضع أصبعه على فمها، يهز رأسه:

ـ لا تكملي.. تعالي لتناول الغداء معي.

ـ تشاد..

ـ دون ارتباطٍ.. مجرد غداء لطيف، في محيط لطيف وبصحبة لطيفة.

كان يجب أن تقول لا.. لكن قلبها المتشوق تغلب على تحذيرات عقلها.

ـ حسناً.. أعتقد..

قال بصوتٍ أجش: لا تجبري نفسك!

ابتسمت غضباً:

ـ أوه.. أنت بغيض، يصعب التعامل معك!

ـ وأنت كذلك لسوء الحظ.. ويصعب نسيانك.

ـ أكنت تحاول؟

ـ أوه.. أجل.. وكثيراً.

أمسكت أصابعه ذراعها، لمنعها من الخلاص:

ـ لقد وافقتِ على تناول الطعام معي.. لنتظاهر أننا تقابلنا للتو.. سنكون مهذبين، لكن مهتمين جداً ببعضنا، وسأظهر لك أنني قادر على التصرف بلباقة تامة.

ابتسمت بسخرية مجدداً وقالت بهدوء:

ـ لم أشك في هذا يوماً.

ـ أبداً؟ أنا مندهش، فأنا بالكاد تصرفتُ معك بأي نوع من اللباقة.

ـ ظننتك قلت بأننا سننسى هذا.

ابتسم لوجهها المحمر:

ـ بالطبع.. أتعلمين؟ عندما تغضبين تلمع عيناك بشظايا ذهبٍ صغيرة؟ ولك طريقة ساحرة في رفع رموشك ببطء.

ـ بالنسبة لشخص.. التقيته لتوي.. أنت تتكلم في أشياء شخصية.

ضحك، ثم قال بوقار:

ـ أنا مشهور بطريقة غزلي.. أتصرف بسرعة بمجرد رؤيتي لشيءٍ أريده.. ومع أننا التقينا لتونا، فقد اكتشفتُ أنني أريدك.

أوه.. إنه ميؤوس منه!

وتبددت كل المشاعر المحبطة والمريرة وكأنها لم تكن.. ضحك معها حول مائدة الغداء ومازحها وأخذ يعاملها كشيء رقيق هش قابل للانكسار، بل وثمين جداً له. أوصلها فيما بعد إلى منزلها بالرغم من احتجاجها وقال وهو يفتح الباب لها:

ـ ألن تطلبي مني الدخول؟

ردت برزانة:

ـ لا.. فأنا لا أعرفك جيداً لأدعوك.

وعدها شيء ما في لمعان عينيه بالردّ، لكنه خبأ ما فيهما بسرعة وقال بخفة:

ـ إذن علينا تبديل هذا الواقع.

التقط يدها يقبّلها، وهو ينظر خلسة إلى وجهها الأحمر.. وقال أخيراً: أورڤوار.

اتصل بها تلك الليلة ليسألها ما إذا كانت تحب الخروج معه إلى العشاء ثم السينما، فتلعثمت وترددت، فأكمل بهدوء:

ـ سأمرّ لآخذك مساء الغد في السادسة إذن.

وأقفل الخط قبل موافقتها وقبل أن تقول له إنها لا تريد الذهاب معه إلى أي مكان.

كان المطر مع قدوم الصباح قد رحل، تاركاً المدينة تلمع تحت سماء ساطعة زرقاء. جاهدت بعد المشوار الصباحي لبيتسي كي تكون جاهزة عند الخامسة، لكن صداعاً أليماً أصابها.

أخذت حماماً ساخناً خلّصها من الصداع، لكن الألم دفع إلى عينيها بالسواد الخفيف، حتى وضعت بحذرٍ الظلال لتخفيه.. ثم حاولت أن ترتب شعرها المتجعد، لكن دون جدوى، فهذا حاله منذ الطفولة.

أظهر اللون الصدئي الأحمر القاتم للفستان لون بشرتها، وأعطى بعض الدفء لوجهها. وارتدت حذاءً أسوداً، ثم رشّت نفسها بعطرٍ خفيفٍ من «مس ديور»..

تمتم تشاد يمسك الباب ليفتحه لها:

ـ أتحاولين إثبات وجهة نظرٍ ما؟ تبدين كشقيقة صغيرة.

ـ وهل خاب أملك؟

ـ لا.. حلوتي! لم يخب أملي أبداً.

ـ حتى ولو وقعت في نفس الفخ؟

لم يتظاهر أنه لم يفهمها، وقال بهدوء:

ـ لا.. أنا لا أكره هذا أبداً، ألم تلاحظي إعجابي؟

ـ بلى، لاحظته.

ولم تستطع منع نفسها من الارتجاف.

ـ اسمعي، أنا لا أتخلى عمن أريدها بسهولة، لست مثل دانيال.. لذا إذا كان لديك أية فكرة للهرب مني، فانسي الأمر.. لأنني سأجدك ولن تكوني مسرورة. قد لا أكون الزوج المثالي في نظرك، لكنني لا أنوي التراجع.

علق شيء قاسٍ ومؤلم في حلقها: فهمت.

هل يعني هذا أنه تخلى مرحلياً عن فكرة الزواج؟ أذهله رفضها للزواج منه بقدر ما أغضبه.. فهو غير معتاد على أي رفض من أي نوع. لا شك أن ذلك الدماغ البارد المنطقي قد أجبره على أن يدرك أن زواجاً مثل الذي اقترحه لن ينجح. لكنه عوضاً عن ذلك قد يقترح عليها ترتيبات أخرى.. لا.. فحتى مخيلتها الناشطة لا يمكنها تصوّر معاشرة تشاد لها دون زواج.

قالت لكي تُبعد هذا التفكير عن رأسها:

ـ إلى أين سنذهب؟

ـ أوه.. إلى مطعم صغير، الطعام فيه جيد وقريب من دار السينما.

وانقلب منذ لحظتها إلى ما كان عليه وقت الغداء في اليوم السابق، يدفع نفسه لفتنتها.. يجعلها تضحك، يمازحها بخفة عبر الطاولة.. ولم يعد هناك أي دليل على التكبر والسيطرة في الصوت العميق وهو يناقش أمر الصراع السياسي الذي حصل ذلك اليوم.. وتجاهلت ناتالي السعادة التي تتلقاها من النظرات

الحاسدة حولها في المطعم.. نظرات من عدة أشخاص جاءوا ليحيّوا تشاد، بعد أن قدّمها لهم وأوضح لهم أنه لا يريد بقاءهم طويلاً.. وكلهم ابتسموا نفس الابتسامة لها.. وابتعدوا عنهما، تاركين الميدان خالياً لها.

قال:

ـ يظنون أنني وكيلك لترتيب شؤونك.

أجابت:

ـ ويصابون بالدهشة لأنني لست امرأة من طرازك.. لو أنهم يعلمون.

ـ يعلمون ماذا؟

هزت كتفيها: أنت تعرف.

ـ أجل.. أعرف. لكنني أشك في أنك تعرفين حقاً.

ـ أنا لم أحاول يوماً أن أقرأ ما في الأفكار.

قال والحدة تعلو ابتسامته:

ـ أوه.. لست أدري.. فأنت تملكين دماغاً ناضجاً، وبعد نظر مخيف.

كان يمكن لناتالي أن تضحك لهذا.. فلو كان صحيحاً أن لها بعد نظر، لهربت راكضة وهي تصرخ إلى أن تصل «ساوت ايلند» منذ وقعت عيناها عليه..

تحركت كتفاها، وقالت:

ـ المعرفة شيء والخبرة شيء آخر..

ـ دعينا نذهب.

كان الفيلم السينمائي جيداً، دراما نفسية فيه لمحات رعبٍ

إلى حد أن ناتالي في مرحلة ما تمسكت بكُمّ سترة تشاد. رأت لمعان أسنانه البيضاء وهو يبتسم. وكانت السماء ممطرة حين خرجا إلى الشارع. علّق تشاد يدها في ذراعه مسرعاً بها عبر الرصيف نحو السيارة..

انزلقت امرأة مسنّة في بركة ماء، ووقعت شاهقة. وتأوهت حين حاول زوجها مساعدتها لتقف، وغاصت إلى الأرض مجدداً قائلة وقد تجمع الناس حولها:

ـ أظنني لويت كاحلي.

بعد قليل، كان الناس المتجمعين قد أعطوا زمام القيادة لتشاد، يفعلون ما يقوله لهم.. وما هي سوى ربع ساعة حتى كانت ناتالي وتشاد والزوج ينتظرون في ردهة المستشفى، والزوج يردد للمرة السابعة، وعيناه العجوزتان قلقتان:

ـ لطفٌ كبيرٌ منك سيد غرايزر..

ابتسم تشاد:

ـ هل تمتعتما بالفيلم؟

ـ أجل، فعلاً.. وأنت والسيدة زوجتك؟

نظر تشاد إلى ناتالي متحدياً أن تعترض: كثيراً.

هذا هو الجانب الآخر من شخصية تشاد، الجانب اللطيف الذي يخفيه عن معظم الناس وكأنه يخجل منه. وها هو يهتم بأمر زوجين مجهولين كما اهتم بأمر دانيال، كما وسيهتم بأولاده. كان بطريقة ما، اختياره لعمله دليلاً آخراً على اهتمامه بالناس.

إنه مزيج غريب من السخرية والحب واللطف.. والتفتت ناتالي لتلهي الرجل عن مخاوفه حول زوجته. وما هي سوى دقائق

حتى كان يبتسم.. حتى أنه مع ظهور زوجته على كرسي متحرك، بدا مذهولاً لمرور الوقت بسرعة.

قال الطبيب بمرح:

ـ مجرد التواء، ولقد ربطت لها قدمها وأعطيتها أقراصاً ضد أي ألم قد تحسّ به.. لكن عليها أن تتحاشى الوقوف عليها أطول مدة ممكنة.

كان العجوزان مسترسلين كثيراً في شكرهما، وزاد استرسالهما حين أوضح تشاد أنه ينوي إيصالهما إلى منزلهما.. وما ان وصلوا حتى حمل السيدة ترايمر إلى المنزل ووضعها في سريرها، يرفض بابتسامة أن تشكره، أو أن يبقى لاحتساء فنجان قهوة.

لم يقل في السيارة شيئاً.. ولم تستطع ناتالي منع نفسها عن التثاؤب.. كانت خيوط مستمرة من المطر الفضي تتجه رأساً إليهما.. لم يكن هناك سيارات كثيرة.. وتساءلت ناتالي كم من الناس سعداء الليلة؟ وكم منهم حزانى؟ وهل هناك غيرها في أوكلاند يشعر بمزيج من الانفعال والعزلة كما تشعر الآن؟

حين توقف محرك السيارة أدركت أنها كانت نصف نائمة. كان حزام الأمان وحده يبقيها في مكانها. وقال تشاد وهو يكاد يضحك:

ـ أتريدين أن أحملك إلى الداخل.. أيضاً؟

ـ لا.. لا.. شكراً لك. أنا متعبة فقط.

ـ يا للأسف!

لكنه خرج من السيارة قبل أن تُتاح لها فرصة الردّ.. فتح لها

الباب كالعادة، وضحك بخبث حين شكرته بأدب، وقال:

ـ ليس بهذه السرعة حبيبتي.

كان عناقه خفيفاً ومداعباً.. وكان يجب أن تكون سعيدة.. لكنها أحست أن هذا هو جزء من خطة ما رسمها لنفسه. دفعتها شعلة غضب صغيرة، فدفعته عنها قبل أن تنسحب وتصفق الباب خلفها. وتصاعد في لحظات أخرى، صوت المحرك، وصوت الإطارات وهي تشتد على الإسفلت.. وتنفست ناتالي بعمق.. إنه استفزاز متعمد، وقد أظهر لها سابقاً ردة فعله للتحدي.

وحاولت جاهدة في العتمة الطويلة لليلها الخالي من النوم أن تتخذ قراراً جدياً لحياتها..

لم تتردد أبداً حين اتصل بها في التاسعة من مساء اليوم التالي ودعاها للخروج معه في نهاية الأسبوع قائلة:

ـ لا تشاد.. شكراً لك، لكنني أظن من الأفضل أن لا..

كانت اللهجة العنيدة التي تكرهها في صوته قاسية حين قاطعها:

ـ حقاً؟ لكنني لا أظن هذا، وإذا كنت غير مستعدة، فلسوف أتأكد قريباً من أن تكوني مستعدة، ولو اضطررت أن أجبرك بالقوة!

قالت بحدة:

ـ لن تجرؤ!

ـ أتظنين حقاً أنني لن أجرؤ؟

جمّدت موجة إدراك باردة بشرتها، وتابعت بشراسة:

ـ هذا سخيف..

لكنه قاطعها مرة أخرى:

ـ أعرف. ولهذا السبب أنت مضطرة لأن ترتدي أفضل ملابسك وتجهزي في السابعة والنصف، وتكوني بانتظاري وإلا...

ـ أكرهك!

ضحك:

ـ أعرف حبيبتي.. ويا لها من كراهية مثيرة.. أراك مساء السبت.

وقفت تنظر إلى يديها بعدما صفقت السماعة في مكانها.. كانتا ترتجفان، ولم تكن تعرف ما إذا كان الارتجاف لأنها تكرهه أم لأسباب ترفض الاعتراف بها.

وهمست:

ـ أكرهه.. أكرهه!

كانت جاهزة بالطبع.. ولم تكن بحاجة إلى لمعان الإعجاب في عيني تشاد لتعرف بأن مظهرها ملائم.. قال بلهجة ساخرة: رائعة!

رفعت رأسها تحدياً:

ـ إلى أين ستذهب؟

ـ أنت تلائمين أي مكان.

قالت ساخرة:

ـ أتتملقني تشاد؟

اشتدت قساوة صوته وهو ينظر إليها بشكل مهين:

ـ ألا تستطيعين معرفة الحقيقة حين تسمعينها؟ مكتملة،

فاتنة، حلوة، هادئة برزانة، بريئة.. أوه.. ستتجاوزين الحدود الليلة.

قالت لتشعره بمدى بلاهته، ولتحاول تعليمه شيئاً صعباً:

ـ أين سنذهب الليلة؟

إنها لا تثق به.. ستحتاج الليلة إلى كل شجاعتها وذكائها.

رد ببرودة:

ـ انتظري لتري.. يمكننا بالطبع أن نبقى هنا..

وابتسم في وجهها الغاضب..

ـ أحتقرك.

ـ أعرف.. لكن لسوء حظك، تريدينني أيضاً.. والآن، هل ستخرجين معي أو نبقى براحتنا هنا؟

ـ هل تنحط دائماً إلى مستوى التهديد لتحصل على ما تريد؟

ـ تقريباً.. فهذا يوفّر عليّ الجدال وإضاعة الوقت.

برزت ابتسامة على أطراف فمها.. إنه صعب المراس. وأية لعبة يلعبها الآن هي نوع من العذاب اللذيذ بالنسبة لها..

كانت متكدرة المزاج حين أدار السيارة بعد عشرين دقيقة من انطلاقهما إلى طريق داخلية خاصة لمنزل ضخم في إحدى ضواحي أوكلاند الفخمة على شاطىء البحر.

سألت:

ـ حفلة خاصة؟

ـ أصدقاءٌ لي.. سيعجبك باتريك وباولين.

أطفأ المحرك، ونظر إلى وجهها المتوتر:

ـ استرخي ناتالي.. لن يأكلك أحد.

لا.. لا أحد يفعل هذا.. كما أنها أحبت باولين انغرام، وزوجها الوسيم الذكي.. لكنها أدركت بسرعة خلال خمس دقائق أنهما من طبقة اجتماعية أكثر فطنة وثقافة من أي طبقة تصورتها من قبل.. باتريك أوسترالي الأصل، رجلٌ أسمرٌ وسيمٌ إيجابي، يشارك تشاد الثقة المكتملة بالنفس.. أما زوجته الفاتنة فكانت عارضة أزياء، هذا ما قاله تشاد لناتالي، وكان من السهل أن ترى أنهما يحبان بعضهما كثيراً. ووجدت نفسها تقاوم اندفاعاً خبيثاً للحسدِ.

همس تشاد في أذنها بهدوء:

ـ تبدين غاضبة.. ظننت بأنني الوحيد الذي يسبب لك هذا.. فما الأمر؟

لم تكن تدري ما إذا كان قد أتى بها إلى هنا كنوع من التجربة ليرى مقدار قدرتها على التعامل في مناسبة اجتماعية كهذه، أم أنه يتباهى ويزهو بها كصديقة جديدة.

رفعت رأسها مبتسمة له بإثارة متعمدةٍ:

ـ أترغب في أن يتكلم عنا نصف المدعوون هنا؟

لمع شيء بشع تحت رموش عينيه:

ـ لا يقلقني كلام الناس.. أما الموجودين هنا..

ودارت عيناه في الغرفة:

ـ.. باتريك وباولين هما الوحيدان اللذان يستحقان المعرفة هنا.. وقد فكرت في أنك ستجدين أشياء كثيرة مشتركة مع باولين..

نظرت إليه بحيرة:

ـ لماذا؟

ـ تملكين عقدة نقصٍ مماثلة لها.. وعليك أن تدركي أنكِ بعيدة جداً عن البساطة أو القبح.. فعيناك بحيرتان جبليتان، وفمك نديّ كالوردة..!

ضحك في وجهها الحائر:

ـ.. أصارحك القول ان سبب ظني أنك ستتمتعين بصحبة باولين، هو أنكما من الريف.. فهي آتية من براري الشمال النائية.

رفع صوته متعمداً بحيث أن مضيفتهما المقتربة منهما، لم يكن أمامها سوى أن تسمع، فضحكت..

كانت دون أدنى شك أطول امرأة في المكان، لكنها لم تكن تهتم بطولها.. مع ذلك، وحتى مع كعبي الحذاء الطويلين، كانت أقصر من تشاد وزوجها.. وأحست ناتالي بأنها كالقزم أمامها..

سألت باولين بدلالٍ:

ـ أليس ممازحاً رهيباً؟ وليس عجيباً أن يتفق مع باتريك تماماً.. إنهما شيطانان.. تركت الشمال النائي وأنا طفلة، وأمضيت معظم حياتي في مدن أوستراليا الكبيرة.

قال زوجها وهو يدس ذراعه حول خصرها النحيل:

ـ آه.. لكن الشمال موطنك الروحي.

التفت إلى ناتالي مبتسماً، وأحست فجأة أنها وسط دائرة ساحرة، وقال:

ـ نحن هنا لعرض ابنتنا على جدّيها.

ضحكت زوجته:

ـ وقليل من العمل.

مضت بعد هذا السهرة بلطف، وزاد من لطفها أن ناتالي وجدت نفسها معجبة بشدة بالزوجين «إنغرام».. كانت باولين مضيفة فاتنة، وكانت تجد الوقت الكافي للحديث مع ناتالي، ولسحرها بدفئها.

انتهت الحفلة بعد منتصف الليل بقليل.. وبقي تشاد وناتالي بعد أن غادر الجميع لتناول القهوة، وجرى حديث سائغ لطيف.. وعرفت ناتالي أن باولين وزوجها الديناميكي كانا يقيّمانها، لكنهما كانا يخفيان هذا الواقع بذكاء دفعها إلى الارتياح، وشاهدا قبل ذهابهما إلى المنزل الصغيرة ناني، البالغة ثلاثة أشهر فقط، التي بدا واضحاً أنها فرح والديها.

كأنما كانت هذه الحفلة إشارة ما، فقد وجدت ناتالي نفسها مدعوة إلى حفلات أخرى ودائماً مع تشاد.. أخافها في البداية هذا الاختلاط الرائع مع الناس، لكنه كان يصرّ على ذهابها. عندما زال قلقها بدأت تتعرف إلى الناس الذين يؤلفون دائرته الاجتماعية.. كانوا من الأغنياء الجذابين، ومعظمهم من الأذكياء.. وتمتعت بصحبتهم، لكنها بقيت قلقة، تعي تماماً أنها موجودة بينهم بتسامح منهم.. واكتشفت أن أونا درايز موجودة في أميركا لكن من المتوقع عودتها قريباً.. كانت تسمع أحياناً همسات الناس حول علاقتهما، وبدا لها عموماً أنها مقبولة كآخر حبٍ له.

مرت أسابيع وناتالي المسكينة تسبح بالارتباك والحيرة، وتخرج معه غصباً عنها.. كانت تقنع نفسها أن هذا بسبب سهولة الأمر عليها. لكنها سرعان ما أدركت بأن إحساسها هذا أكثر من

تجاذب جسدي . .

همست لنفسها : لقد وقعت في حبه!

كانت تلك الليلة هادئة. تخفي خوفها بتحفظٍ لم تستطع أبداً التغلب عليه . . كانا في حفلة أخرى . . وكانت أونا قد عادت، تتقاذفها أمواج الغيظ، لكنها كانت تخافه أكثر من أن تفعل شيئاً. لكن ناتالي لم تكن مرتاحة لهذا، تعي النظرات الحادة التي تتلقاها. وتدرك كذلك أن معظم المتواجدين في هذه الغرفة الكبيرة كانوا يراقبون الثلاثي بأعينٍ تواقةٍ شرهةٍ للقيل والقال.

تعامل تشاد مع الموقف بشكلٍ متفوقٍ، ولم يكن أبداً أقل لطافة واحتراماً لأونا، لكنه أبقى ناتالي ملتصقة إلى جانبه يبتسم لها بسحره الكسول، وفي أعماق عينيه تحذير شرس.

دخل إلى المنزل كعادته لاحتساء فنجان من القهوة بعد أن عادا . . وقالت له ناتالي وهما يحتسيانها، إنهما يجب أن يفترقا . . فنظر إليها بعينين نصف مغمضتين، وسأل : لماذا؟

ـ ما من داعي لأن نرى بعضنا . أعني لقد عادت أونا .

ـ وما دخلها بهذا؟

ـ حسناً . . هذا هو سبب مرافقتك لي . . أليس كذلك؟

ـ لا . . كنت أرافقك لأنك ستتزوجينني . . وأردتك أن تعرفي كيف ستكون الحياة وأنت زوجتي .

قالت بهدوء بالرغم من سماعها لدقات قلبها :

ـ إذن هذا هو السبب . . مؤامرة لتدفعني إلى الزواج منك .

ـ أؤكد لك ما من مؤامرة . . فأنا أتودّد إليك لأن هذا من حقك . . بما أنك ودانيال لم تثقا بي ولم تجرؤا على قول

الحقيقة، فقد كانت بدايتنا معاً خاطئة، ولا داعي إطلاقاً لأن تفوتك سعادة تودّدي إليك .

نظرت إليه وعيناها قاتمتان :

ـ يبدو هذا أمراً مكتوباً في دليل العشاق بالقرن الماضي . . أكنت تتحدث إلى أمك عني؟

لم يدعها حتى الآن للقاء أمه السيدة غرايزر . . وهذا إهمال جعلها تتساءل عدة مرات عما يجول في خاطر تشاد بالنسبة لها .

ـ لقد تجاوزتُ السن الذي أعتمد فيه على أمي لتُسديَ لي النصيحة حول كيفية معاملة امرأة .

ناقش إذن الأمر مع أمه . . صحيح أنه لا يحتاج لهذا ليكوّن قناعة شريفة حمقاء . . فهو يعاملها معاملة خاصة وسيتزوجها ليعيشا بعد ذلك «بتعاسة» إلى الأبد .

ما من مجال لهذا . . لقد كانت ڤيوليت حكيمة، وخرجت من حياة دانيال عن قناعة . . ولن تكون ابنتها أقلّ قوة في إرادتها منها .

وتصلبت لقرارها هذا لتقول بصوتٍ جاهدت لتجعله عادياً :

ـ هذا غير مهم . . لأنني لن أتزوجك، لا الآن، ولا أبداً . . لن ينجح زواجنا .

سألها بنعومة :

ـ لماذا إذن كنت تخرجين معي؟

قالت بصوتٍ حادٍ :

ـ لأنني أهواك كالمجنونة . . لكنني لن أتزوجك .

ساد صمت كالذي يسبق الزلزال الذي يدمر الأرض زاحفاً بالموت . . وتشابكت يدا ناتالي أمامها .

غرزت أصابعه في كتفيها، تديرها لتواجهه.. بدا وكأنه يريد قتلها، تبرق عيناه في وجهه.. وبشرته مشدودة فوق عظام برزت فجأة.

أغمضت عينيها مترقبة.. وساد صمت رهيب.. وفتحت بعد قليل عينيها لتنظر إليه. لكنه كان قد اختفى دون أن تشعر أو تلاحظ خروجه.

* * *

www.liilas.com

Aml

٧ ـ الحب لا يكفي

مرت ساعات طويلة على تركه لها، كانت مستلقية على الفراش، تحدّق في سقف الغرفة يحاول دماغها المرهق بجهد تفهّم ما يحدث. لماذا يجب أن يكون هذا الرجل بالذات الذي يجعلها دون شجاعة، أو تفكير، أو إرادة؟

إنها تستلقي الآن في السرير الكبير، والدموع تنهمر لا تحل شيئاً مع ذلك لا يمكنها منعها.. كانت تتقلب حين تغلب النعاس عليها، دون ارتياح، وأنفاسها تخرج بشكل شهقات صغيرة فوق الوسادة.

هبت في الصباح ريح تئن بشدة من الشرق، عابقة برائحة المحيط العاصف. أخذت بتسي تتجول بقلق قرب الباب، وأذنيها تستديران في كل اتجاه، وقالت ناتالي لها:

ـ هذا جيد لك.. تعالي، أين قوة احتمالك؟

وضعت لها القيد في طوقها، ثم ارتدت معطفها.. أمر غريب، يكاد قلبها يتحطم مع ذلك فهي تتابع روتين حياتها وكأن كل شيء يسير على ما يرام..

وترنحت، في الحديقة العامة، الأغصان العارية من أوراقها لتنحني متصلبة أمام الريح.. لم يكن من داعٍ لتشجيع بيتسي على

الركض، لأن جسدها كان يتحرك ذهاباً وإياباً. وحاولت ناتالي أن تحذو حذوها في لعبها، لكنها لم تنجح.

أحست بالتعب سريعاً، وقررت مراجعة الطبيب.. حاولت أن تتذكر اسم الطبيب الذي عالجها من وعكتها الأخيرة، لكنها لم ترغب أن تتعامل معه لكونه طبيب تشاد. وقررت أن تسأل السيدة مونرو عن طبيبها.

ـ إنه الدكتور هنتر.. إنه لطيف جداً.

وأرشدتها إلى عيادته الكائنة في آخر الشارع.

نظرت إلى وجه ناتالي المحمر من لفح الريح.

ـ هل استعدت عافيتك بالكامل عزيزتي؟ أيجب أن تمرّني بيتسي؟ سأكون سعيدة لو فعلت هذا عنك.

قالت ناتالي لجارتها بامتنان:

ـ لقد كنت لطيفة جداً معي.. وأظن أن هذه النزهات تفيدني أكثر مما تفيد بيتسي.

ـ صحيح.. معك حق. لكن لا تبالغي.

ابتسمت ناتالي:

ـ أعدك أن لا أبالغ.

لكن كان أمامها طلبات يجب أن تلاحقها، من أجل الوفاء بمصاريف معيشتها. هكذا انكبت على الخياطة إلى أن آلمها رأسها، وشربت فنجان قهوة، وأخذت معه قرصين قاتلين للألم، ثم عادت إلى العمل. اتصلت قبل منتصف الصباح بقليل بعيادة الطبيب وحددت معه موعداً.

أجفلت حين أخذ جرس الهاتف يرن، ونظرت إليه وكأنها

ستفقد عقلها، قبل أن تلتقط السماعة..

وكان تشاد، الذي سأل بحدة:

ـ مع من كنت تتكلمين؟

ابتلعت ريقها بصعوبة:

ـ مع محل، لأقول لهم إن طلبهم سيتأخر قليلاً.

كان الكذب صعباً عليها، لكنها لم ولن تستطيع، أن تخبره عن موعدها مع الطبيب.

ـ لا تعملي جاهدة.. فأنت لم تشفي بعد تماماً، وتعرفين هذا.

صمت قليلاً، ولم تقل شيئاً، فأكمل:

ـ أنا مسافر بعد الظهر.. ولا أعلم كم سيطول سفري، لكنه لن يكون لأكثر من أسبوع. سأتصل بك حين أعود.

إنها بداية الهجران.. وأحست بقشعريرة برد، اضطرت معها للسعال لتجلي حنجرتها.

ـ فهمت.. تمتع بوقتك.

بدا متحفظاً:

ـ أشك في هذا.. اعتني بنفسك ناتالي.. ماذا ترغبين أن أجلب لك معي؟

جعلت لهجة السخرية في صوته رأسها يرتفع، وقالت ببرودة:

ـ لا شيء.. شكراً لك.. أنتَ فقط.

ضحك:

ـ أوه.. سأعود إليك.. إلى اللقاء في الأسبوع المقبل إذن.

قبل أن يتشكل الردّ في رأسها، أقفل السماعة، وأخذت سماعتها تردّد رنين الفراغ في يدها.

اشتاقت إليه.. هذه كلمات سخيفة تصف فيها الفراغ المرير للأيام التي تلت.. لكن العمل منعها من قضاء كل دقيقة صحو تتشوق إليه.. هكذا عملت طوال النهار وفي أغلب الأوقات ساعات طويلة من الليل، لكنها كانت تستيقظ كل صباح، يتملكها إحساس جديد بالنقص.

وحلمت به كثيراً.. كانت أحلام خسارة ووحدة وخوف، إلى درجة أنها كانت تستيقظ مرتجفة باكية.

أدركت ببطء.. ما فعلته حين كاشفته برفضها الزواج منه. إنها تحبه، مع ذلك أدارت ظهرها لهذا الحب.. واستخفّت به. وبهذا خسرت فرصتها لتغيير مشاعره نحوها إلى لا شيء سوى المرارة، التي تجعل كل أيامها باردة، والمستقبل لا يحتمل..

آلمها الآن أن تتذكر كلمات أمها عن الحب: «إنه مقوّم أساسي وجيد جداً للحياة ويزيد بريق الحب برابط الزواج.. لكن لا تشعري يوماً أنه الشيء الوحيد الضروري.. يجب أن يكون هناك الاحترام، الحنان، ومجموعة اهتمامات مشتركة.. وتذكري دائماً أن هناك العديد من الرجال، الذين يثيرون كل هذا فيك».

تنهدت ناتالي وهي تتذكر، تسند رأسها على يدها. ربما ڤيوليت على حق. سيتواجد ربما رجل في المستقبل يمكن أن يلهمها الحب مرة أخرى.. لكن في هذه اللحظات، وقلبها يتضوّر شوقاً لتشاد ولوجوده معها.. فهي تشك في هذا كثيراً.

همست بيأس: عدّ إلي.. عد إليّ حبيبي!

كانت حين عاد، تستعد للخروج مع بيتسي وكان يوم سبت، وقد مضى على غيابه عشرة أيام.. وتوقفت أمام السيارة تنظر إليه، ليتقلب قلبها رأساً على عقب.

استقام مبتسماً بعد أن داعب بيتسي واستكانت، وتقدم إلى ناتالي المسمرة بالباب، وعيناه اللطيفتان مسمّرتان على وجهها.

ـ تبدين وكأنك كنت تعملين بمشقة وجهد..

أحنى رأسه ليعانقها. ووقفت للحظات جامدة بين يديه.. ثم أمسكت ذراعيه وتعلقت به، والدموع الغبية تترقرق في عينيها.

لكنه لم يرَ تلك الدموع.. وأراح خده على شعرها، قائلاً:

ـ أعتقد بأنه حان الوقت لبيتسي أن ترى بقرة.. اذهبي واحضري أي شيء قد يلزمك لتقضي يوماً في الريف.

ـ وهل أحتاج لأن أغيّر ملابسي؟

ـ لا.. تبدين ملائمة جداً.. ألديك حذاء مطاطي؟ عظيم، اجلبيه إذن.. سنعود بعد العشاء.

ـ أوه..

ـ ما الأمر؟

ـ أنا لا أرتدي شيئاً للعشاء.

ـ إذا بقيت محتارة هكذا فلن ترتدي شيئاً.. ألم تشتاقي إليّ؟

تراقصت الخصلات المتجعدة السوداء وهي تهز رأسها إيجاباً، فضحك، وتركها، يدفع بها إلى داخل الباب.

ـ توقّفي عن تجربة إغوائي.. أيتها الساحرة الواسعة العينين. سنتناول العشاء مع مدير مزرعتي وزوجته، وبشكل غير رسمي.

هكذا غيّرت قميصها، وارتدت تنورة بدل الجينز، فوقهما

كنزة عكست لون خديها . . وابتسمت لصورتها في المرآة.

كان اليوم من أيام الشتاء الجميلة . . سارت بهما السيارة عبر الضواحي، وجسر الميناء.

استدارت السيارة يميناً بعد ساعة من الانطلاق شمالاً عن أوكلاند، لتسير عبر طريقٍ وعرةٍ، بحيث أن ناتالي لم تستطع منع صرخة حين واجهت السيارة أول حفرة.

ضحك . . وكانت مسرورة أنه لم يرفع نظره عن الطريق الملتوية أمامه، وأيقنت بأنها لن تشعر بالثقة سوى مع تشاد.

ـ كم تبعد هذه الطريق؟

ـ حتى النهاية ثمانية كيلو مترات. وستزداد سوءاً.

قبل نهاية الطريق، ظهرت شجيرات شاي منخفضة مليئة بزهرٍ أبيضٍ صغير. وقال لها:

ـ هذه هي مزرعتي.

ـ منذ متى وهي لك؟

ـ منذ ثلاث سنوات. حين اشتريتها كانت مقفرة كلها تقريباً. ولقد طوّرناها كثيراً. .

جعلها شيء في صوته تدير رأسها إليه. كان يبتسم وقالت بلهجة متسائلة:

ـ أهذا ما تحبّ أن تقوم به؟

ـ أجل.

ـ أفضل من أن تكون محامياً؟

بدا للحظاتٍ وكأنه يتجاهل سؤالها، ثم قال:

ـ أجل . . أعتقد أنني أفضّله على المحاماة . . أنا أتمتع بعملي

كثيراً . . لكن جعل الأرض تزدهر، شيء آخر . . لكنني لست مزارعاً، فبيتر كاسل يقوم بكل شيء، وأنا أوفّر له المال والحماس . . صحيح أن وضعنا المادي ليس جيداً لكننا سنعيش.

استدارت السيارة حول سطح تلة وظهر المنزل على حافة وادٍ أخضر، معزول وصامت، تحت أشعة الشمس الساطعة.

ـ آه . . ها قد وصلنا.

كان في الواقع ثلاثة منازل . . منزلان صغيران من طابق واحد على طراز حديث، وفي الطرف الآخر من الوادي بناء ضخم قديم من طابقين مبني بين أشجار كثيفة ضخمة استوائية.

قال لها تشاد:

ـ إنه بيت المزرعة الأصلي، لكنه في حالة سيئة مع أنني أصلحته كثيراً.

ـ يبدو جميلاً . .

ـ إنه مكان لطيف جداً . . يجب إزالة هذه الأشجار طبعاً . . إنها قديمة وقريبة جداً منه . . لقد زرعت أشجاراً أخرى، كوقاية له من الريح، وسأقطع حينما تكبر كل الأشجار القديمة.

ـ عظيم . . أكره هذا النوع من الأشجار، إنها قابضة للصدر، ومعتمة، لا بد أن المنزل معتم من الداخل أيضاً.

ـ صحيح . . لقد زرع هذه الأشجار إنسان لا مخيلة واسعة له . . ولا يملك أدنى فكرة له كم ستصبح ضخمة.

كان ينتظره قرب البوابة، رجل ممتلىء الجسم صغيره متقوّس الساقين، بابتسامة مشرقة وبعينين رماديتين ذكيتين، تستوعبان كل ذرة من مظهر ناتالي بسرعة البرق، وبنظرةٍ لطيفةٍ.

قال تشاد:

ـ هذا بيتر كاسل. أخبرتك بأنني سآتي ومعي ناتالي كونراد.

رد بيتر:

ـ زوجتي متشوقة للقائك.

صافحهما بحرارة قبل أن يقود الطريق عبر ممر بين مساكب زنابق ربيعية، والنرجس الأبيض والأصفر.

كانت زوجة بيتر امرأة كبيرة الجسم تملك أجمل عينين خضراوين رأتهما ناتالي، في وجه ذكي بسيطٍ، كانت ابتسامتها وترحيبها حذرين مع أنها رحّبت بتشاد بمودة واحترام.

صنعت الشاي، وأمضى الجميع أكثر من عشرين دقيقة ممتعة وهم يحتسونه على الشرفة في الخارج.

كانت الشمس حارة رغم أن الوقت كان في منتصف الشتاء.. سألت ناتالي خلال توقف قصير للحديث:

ـ أليس البحر بعيداً من هنا؟ هذه طيور نورس، أليس كذلك؟

قال تشاد لمضيفيه:

ـ لا يبعد البحر أكثر من ميلين وراء هذه التلال وهو أحد حدود الجزيرة.

هزت ناتالي رأسها، ولمعت الشمس بلونٍ أزرقٍ على شعرها الأسود، تنير استدارة فمها الرقيقة وهي تقول:

ـ أنا أتشوّق لأول عيد ميلاد هنا.. لم تسأم أمي يوماً من إخبارنا كم أن أوكلاند جميلة بأشجارها ذات الزهور الحمراء، القرمزية، حول الشاطىء.

قال تشاد بعفوية وهو يقف:

ـ سنقوم حين يأتي الميلاد برحلة خاصة لرؤيتها.. تعالي، سأجول بك في المكان.

قالت وهو يجرّها معه:

ـ لا.. انتظر.. سأساعد السيدة كاسل قبل أن نذهب.

أصرت السيدة بحزم:

ـ أبداً.. ليس هناك بالشيء الكثير.

حاولت ناتالي الاحتجاج لكن المرأة ابتسمت:

ـ لقد اشترى لنا تشاد غسّالة صحون، فلا إزعاج في هذا، اذهبا الآن، قبل أن تضجر الكلبة وهي مربوطة.

ضحك الجميع، فقد كانت بيتسي تقفز بترقب منذ جلوسهم، وأنفها يتحرك مع كل رائحة جديدة عليها قادمة مع الهواء.. وخرجوا في سيارة لاندروڤر وسارت بهم فوق شبكة طرقات داخلية نظيفة..

كانت الطريق جيدة، لكنها مرصوفة بشكلٍ وعرٍ، وكانت ناتالي تميل حين تلاقي اللاندروڤر حفرة في الطريق، لتستند إلى تشاد.. فيلفّ على الفور ذراعه حولها ليثبتها، وأحسّت بارتباكٍ متوترٍ.

تصاعدت الحرارة إلى عنقها، وانتشرت في خديها. فسألت:

ـ كيف حال بيتسي في الخلف.

وحاولت الالتفات، لكنه شدّ ذراعه عليها ليمنعها من النظر وقال باختصار: بخير.

وتابع حديثه مع بيتر.

وتركها تغلي غضباً وجمدت نظرها إلى الأمام.. كانت لمسته

لها إظهاراً لعدم احترامه لها. لقد قال «الزوجات يحصلن على الاحترام» وها هو يوضح الآن ما ستعانيه برفضها للزواج منه.

أدارت رأسها نحوه، كان لا يزال يتحدث إلى بيتر، بعد قليل، انخفضت عيناه إليها يستدعي بنظرته الشرارات الذهبية في عينيها، وترنح اللاندروفر يلتفّ حول جانب التل، بينما بقيت تنظر إليه بذهولٍ وارتباك.

ثم قال بيتر كاسل شيئاً ليبدّد بصوته اللطيف أجواء السحر، واشتدت يد تشاد حولها قبل أن يرفع ذراعه ليريحها على ظهر المقعد.. وتوقفت السيارة في أعلى التل، ليقول بيتر بصوت مرح:

ـ المنظر جميل من هنا.

نزل تشاد وارتد إلى الخلف لينزل بيتسي، تاركاً ناتالي تنزل لوحدها، متخلياً عن كياسته العادية معها. ثم سأل:

ـ كم بيتسي جيدة في العودة حين تستدعينها؟

هزت ناتالي كتفيها:

ـ نعم هي رائعة في الحديقة، أما كيف سيكون حالها هنا، فهذا أمرٌ لا أعرفه..

ـ سنجرّبها.

ما إن أزال عنها القيد، حتى انطلقت عبر العشب، رأسها إلى الأسفل، وأذناها متوترتان.. لكن ما إن استدعتها ناتالي حتى عادت على الفور، ولو بشيء من الحيرة.

قالت لها ناتالي:

ـ عظيم.. كلبة أليفة.. انطلقي الآن.

اختار بيتر موقعه المفضل بعناية.. أعلى نقطة في كل المزرعة تقريباً.. كان يعطي منظراً رائعاً للمراعي الخضراء قرب منزل المزرعة حتى التلال الخضراء الرمادية، وأشجار الصنوبر وكأنها قطعة من البحر الأزرق الشفاف أمام خط الجبال الممتدة مع الأرض حتى الأفق.

تنفست بعمق:

ـ أوه.. إنه منظر جميل.

ركّزت اهتمامها على ما تراه حولها، وأعجبتها قطع الأرض الحرجية المزروعة، وعرفت من كلام بيتر أنها باقتراح من تشاد.

وسألت:

ـ هناك أشجار أكثر بكثير من المعتاد، أليس كذلك؟

هز تشاد رأسه:

ـ لدي نظرية تقول: يحتاج العشب والماشية معاً إلى المزيد من الحماية.. بيتر لا يصدق هذا، لكنه يتآلف بسرعة مع الأفكار الغريبة.

ضحك بيتر:

ـ ويزداد تآلفي معها حين يكون على استعداد لتوفير المال لها.

كان هناك برك للمياه يحيط بها المزيد من الأشجار، كلها أشجار محلية، وعلى أطرافها أشجار تفاح برّي، وشجيرات توت بري لجذب الطيور.. راقبا في أيكة أشجار في أحد الوديان، حمامتين من النوع المحلي الكسول، تجلسان بتناغم هادىء على غصن، يلمع صدرهما الأبيض السمين بتناقضٍ واضحٍ مع أوراق

الشجر البرونزية القاتمة.

قال بيتر بصوت منخفض:

- إنها طيور غبية. تجلس هكذا وتترك لك المجال لصيدها..

قالت ناتالي:

- أوه.. لكنهما جميلتان جداً.

كانت بيتسي تمرح فوق العشب دون تأنيب لما تفعل سوى مرة واحدة حين برزت غرائزها الموروثة واتجهت نحو مجموعة من الأبقار. وعلّقت ناتالي:

- إنها فعلاً كلبة رعاة ماشية.

وأعاد أمر تشاد الصارم الكلبة بشيء من التردد، فانحنى يتلمس رأسها:

- لكن ليس لماشيتي.

ظهر لها واضحاً بأن الرجل الذي تحبه بالرغم عنها هو شبكة متناقضات: قاس ولطيف.. خشن وناعم.. شريف ودون رحمة.. معقد ومحنك.

وقف يلتقط عينيها بنظرة ساخرة طويلة، ثم التوت شفتاه، ماسكاً يدها ليجرها إلى اللاندروفر، قائلاً:

- بيتر لا يستطيع العيش لأكثر من ساعتين دون فنجان شاي.

اتضح فيما بعد في المنزل، بأن السيدة كاسل كانت بانتظارهم والمائدة محضّرة لتناول شاي بعد الظهر وقد تمتع به الجميع.

* * *

www.liilas.com Aml

٨ ـ الموت أفضل

تنهدت ناتالي وهما يسيران عبر المرجة الخضراء باتجاه المنزل القديم خلف ستار الأشجار الصنوبرية.

- هذا كثير.. إنها طباخة رائعة.

رد باقتضاب:

- جيدة جداً.

استرقت نظرة إليه قبل أن تدير وجهها عنه.. انتشر اللون القرمزي على خديها وهي تفكر به.. وسألت:

- كم عمر هذا المنزل؟

- قِيلَ لبيتر إنه بُني منذ مئة سنة.

وبدا هذا صحيحاً.. تحيط به شرفات عريضة مقنطرة معمّدة، على علوّ درجتين فقط فوق المرجة الخضراء الممتدة أمامه.. مظلل بشكل كثيف بأشجار كبيرة قديمة، صحيح أنه معتم وبارد، لكن وهما يسيران عبر الغرف الكبيرة المرتفعة السقوف، تصورت ناتالي كم كان جذاباً في أيامه.

قالت تنظر مرتاعة إلى المطبخ الرهيب:

- يلزمه كثير من الإصلاح.

ابتسم تشاد:

ـ هذا صحيح، حقاً.. حين رأيته أول مرة، كانت الجدران تتمايل كلما هبّ الريح.. ولقد جرى إصلاحها بالطبع.. ماذا كنت ستفعلين به؟

أحبّت أن تُعرِبَ عن رأيها، لكن شيئاً ما في نظرته جعلها تهز رأسها.

ـ يحتاج إلى خبير ليعرف إمكانياته.

ـ أتظنين هذا؟

حذرها شيء ما بأن غريزتها كانت على حق.. وقال:

ـ لقد قمتِ بعملٍ ممتازٍ لمنزل المدينة.

ـ مقارنة بهذا، منزل المدينة مجرد لعبة.

ـ ظننت أن كل النساء يحبين فكرة صرف مبلغ ضخم من المال على بيوتهن.

أجفلت، لكنه تحرّك بسرعة وأمسك بكتفيها.. وقال بوضوح وكأنه يتحداها أن تعترض:

ـ فكرت حين ننجب أطفالاً أن ننتقل للسكن هنا. أعرف أن الطريق مريعة.. لكننا نستطيع إصلاح هذا. ثم هناك مدرسة لا تبعد كثيراً.. سيكون مكاناً جيداً لتربية الأطفال.

وقفت متصلبة:

ـ أنا واثقة من هذا.. لكننا لن ننجب أولاداً تشاد.

ـ ألا تحبين الأطفال؟

ـ ليس أطفالك.

ـ هذا مؤسفٌ..

أخفض رأسه ليرتاح على شعرها، مكملاً:

ـ بالطبع. إذا كانت فكرة إنجاب الأطفال تخيفك. إذن لن ننجب. صحيح أن أمي سيخيب أملها. في النهاية إنها حياتنا نحن، وليست حياتها.

لا شك أنه يعرف كم يؤلمها بهذا الكلام.. قالت عبر شفتين شاحبتين متصلبتين:

ـ لن أتزوجك تشاد.

ضحك:

ـ بالطبع ستتزوجينني.. أين تظنين بأنني أمضيت الأيام القليلة الماضية؟

همست: أين؟

راقبها بتسليةٍ باردةٍ:

ـ أتعرّف على عائلتك.

ـ لا.. لا تشاد.

ـ بلى ناتالي.. ولقد أعجبنا ببعضنا كثيراً.. أعتقد أن زوج أمك تأثر كثيراً لأنني جئت أطلب يدك منه.. وكنت واثقاً أنه سيوافق معي على أن أتزوجك.

رفعت يدها تصفع وجهه الساخر:

ـ كيف تفعل هذا؟ أستطيع قتلك الآن.

آلمتها يدها، لكنها تمتّعت بالألم، وراقبت عينيه بغضبٍ مريرٍ، بينما كانت بشرته تشحب ثم تحمرّ لقوة الصفعة.

كرّرت بخشونة أكثر:

ـ لن أتزوجك.. أبداً.. حتى ولو وقعت كل عائلتي ضحية لنتك الخادعة التي تستخدمها كسلاح.. ألا تستطيع إدخال هذا

في رأسك؟ لا أريد أن أتزوجك! لا أستطيع التفكير بشيء أسوأ من الارتباط بك إلى أن تسأم مما تريده مني، ثم تطلّقني.. أفضّل أن أموت!

ـ لا حاجة لأن تقلقي حول الطلاق، فأنا لا أؤمن به.. إضافة إلى هذا، أعتقد، أن نقص خبرتك، هو الذي يجعل من الصعب عليك فهم ما أريده منك.. أريدك كلك، أريد أن أمتلكك ناتالي، جسداً، قلباً، وروحاً.. أريد أن أعرف أنك حين تنظرين إليّ ستعرفين من هو سيدك!

ارتعشت خائفة وظنت بأن يديه ستسحقان كتفيها.. وبدأت تهز رأسها، خائفة أكثر مما فعلت من قبل.. وقالت عاجزة:

ـ لن تستطيع.. لن أسمح لك.

ـ لن تستطيعي منعي.

تركها وسار إلى النافذة.. حدّق للحظات طويلة نحو الخارج.. وكان صوته حين تكلم بارداً:

ـ إذا كنت لن تتزوجينني.. سأخبر زوج أمك كل شيء عن أمك.. إنه رجل متدين، ومتصلب في وجهات نظره.. يكره الكذب والخداع.

أجفلت ناتالي ترفع يديها إلى وجهها.. لقد ظنت أنه آلمها كثيراً بحيث لن تتألم أكثر. لكنه كان ذكياً جداً في اكتشاف طرق جديدة للتسبب بالألم..

استسلمت في تلك اللحظات، كانت مدركة بأن ديسموند يجد صعوبة في مسامحة من يكذب عليه.. ولو اكتشف أن زوجته خدعته سينهار زواجهما.. كانت ڤيوليت تعرف هذا حين طلبت

من دانيال أن لا يكشف علاقته بناتالي.. ولو نفّذ تشاد تهديده، ستخسر ڤيوليت الكثير.. وكذلك زوجها.

سألها بصوتٍ متعبٍ، لكن دون لين في تصميمه:

ـ حسناً.. ما هو قرارك؟

سوف يدمّر العالم ليحصل على ما يريده.. سألته بصوتٍ يثيرُ الشفقة:

ـ لماذا؟

رفع كتفيه دون اكتراث:

ـ الله يعرف.. أتظنين أنني أريد هذا وبهذه الطريقة؟ ربما تثيرين بي تعصبي.

ـ وهل يستحق كل هذا زواجك من امرأة تكرهك لمجرد أن نأخذها إلى الفراش؟

ضحك وعاد بسرعة ممسكاً يدها، وقال:

ـ لكنني لا أريد فقط أن آخذك إلى الفراش.. أنت تفهمين لماذا.. أليس كذلك؟ لا، أنا لا أريد خدمات جسدية فقط ناتالي.. فأنا أريدك.

تنهدت ناتالي:

ـ حسن جداً..

يمكن أن تكون سعيدة في حياتها معه، لكن ستبقى تعي أنه لا يحبها. وما يشعر به نحوها قويّ لكنه ليس الحب.

تركّزت عيناها الواسعتان على وجهه، وظنت أنها تقرأ الازدراء فيهما والغضب، فارتفعت يداها لتغطي وجهها.

تمتم يبعد يديها.

ـ لا . . مع أنني أريدك بيأس، لن أفعل لك شيئاً . . أستطيع الانتظار . . ولا تنظري إليّ هكذا ناتالي . . أرجوك .

قالت بمرارة :

ـ وكيف أبدو لك؟ خجولة؟ حسناً . . أنا خجلة!

قال بهدوء : ناتالي .

توقفت غير قادرة على النظر إليه، وارتفع أصبعه ليرفع ذقنها . . نظر في وجهها للحظات طويلة، ثم قال : لا يهم .

ثم أمسك بمرفقها بقبضة عفوية .

كان الوقت متأخراً جداً حين عادا إلى المنزل . . أمضيا أمسية سارّة مع بيتر وزوجته، ثم عادا في ليلٍ صافٍ . لم تستطع ناتالي بالرغم من نفسها، أن تمنع تسارع دقات قلبها وهما يقتربان من أوكلند . .

مرّ الوقت بعد ذلك كالحلم، وتعشيا في الأمسية التالية عند أمه، التي كان لها كل فتنة تشاد، مع قليل من شدته والتي أوضحت أنها تستقبل ناتالي بارتياح تام، قائلة بحبورٍ :

ـ لقد آن الوقت لأن يكون لي أحفادي .

أجرى تشاد بعد العشاء مخابرة مع «ساوث ايلند» ليخبر ثيوليت السعيدة بأنه نجح في إقناع ابنتها بالزواج به . . وقالت ثيوليت بإثارة لناتالي :

ـ نحن مسرورون جداً لك، حبي . . لقد أحببناه كثيراً . . يعاني الصبيّان من حالة إعجابٍ شديدة به كبطل .

دعا صوتها ابنتها لتشاركها الضحك، أكملت الحديث معها مبتسمة، وتمكنت أن تكون ناتالي التي تعرفها أمها . وسألت

ثيوليت وكلها أمل :

ـ لا أظنكما ستقيمان حفل الزفاف هنا .

ـ أنا . . أنا لم أفكر بهذا .

تمرّد كيان ناتالي كله ضد فكرة المضي بهذه التمثيلية الفارغة أمام أعين عائلتها المحبة، لكن قبل أن تقول شيئاً أخذ تشاد السماعة ليعلن أنهما بالطبع سيتزوجان في موطن ناتالي، إنما بزواجٍ بسيطٍ، فهو لا أقرباء كثر له . ثم أعاد إليها السماعة لتتكلم مع زوج أمها وأخويها الصغيرين .

وانتهت المكالمة تاركة ناتالي تشهق شهقات بكاء عظيمة، أتتها من حيث لا تدري . . دموع محرجة، وبؤس شديد ظنت نفسها ستموت منه .

أمسكت ذراعا تشاد بها، واستخدمت منديله لتجفيف أسوأ تدفقٍ للدموع مرّت به . . وقالت السيدة غرايزر :

ـ يا للطفلة المسكينة . . أظنك مرهقة . . تشاد توقف عن التمسك بها وكأنها ستختفي . . اذهب وأحضر لها القهوة .

ـ ليس القهوة . . إنها لا تحبها كثيراً .

ـ لا دخل لحبها بهذا، فالقهوة تنبه حواسها . . هيا تشاد، إنها بحاجة إلى شيءٍ ساخن .

وأستبدلت الذراعان القويان بذراعين أنثويين . . وشهقت ناتالي، ونفخت أنفها، تجفف الدموع التي كانت تتساقط لوحدها، ثم قادتها حماة المستقبل إلى الصوفا، قائلة :

ـ إنها إثارة قوية .

عاد تشاد بفنجان قهوة يتصاعد البخار منه :

ـ دون سكر.. اشربيه كله.

كان طعم القهوة المُرّة مريعاً، لكنه أوقف دموعها.. وما هي إلا لحظات حتى أثرت حرارته عليها واسترخت.. واقترحت السيدة غرايزر بعد نوبتين من التثاؤب، أن تمضي ناتالي الليل عندها. لكنها قالت بسرعة:

ـ أوه.. لا.. شكراً لك.. لقد تركت بيتسي محبوسة في المنزل.

ابتسمت السيدة لها:

ـ حسناً.. يجب أن تذهبي إذن.

أدارت اهتمامها إلى ابنها:

ـ لا تدعها ساهرة كثيراً تشاد.. إنها تحتاج إلى النوم.. فالمسكينة تبدو سوداء العينين.

تفحص البيت مرة أخرى قبل توديعها.. لكن عناقه هذه المرة كان من النوع الذي تخشاه.. كأنه يشعر بالغضب، وبحاجة لأن يعبّر عن قوته أمامها.. لو أنه أدرك لمرة واحدة أنها تحبه، سيكون في يده سلاح لا يقهر.. سلاح سيستخدمه في معركته الصامتة التي يخوضها بها وتركها لأفكارها وذهب.

مرت الأيام تلاحق بعضها بعضاً بشيء من الضبابية. كان تشاد، قد أعلن لها أنهما سيتزوجان خلال شهر.. وأن عليها العودة إلى موطنها قبل أسبوع من الموعد. ووجدت نفسها تستخدم عملها كعذر، تخيط في كل دقيقة فراغ لها ما بين اختبار ثوب العرس وبين الجهاز، وتحت إشراف السيدة غرايزر الحريصة.

اعترضت ناتالي في البداية على كمية المال المقدّمة لخزانة ثيابها، والتي تظنها السيدة غرايزر ضرورية.. لكنها زجرتها بلطف.

ـ يجب أن تكوني مستعدّة لكل شيء، بالرغم من تحفظ تشاد وعزلته، إلا أن له حياةً اجتماعيةً جيدةً.. من شاي الصباح إلى الباليه، إلى الحفلات الراقصة.

ـ شاي الصباح؟

ضحكت السيدة، وأكملت:

ـ ربما لا.. لكن أرجوك أن لا تتعبي في موضوع الملابس عزيزتي.. تملكين جسداً صغيراً وجميلاً، وسيسعد تشاد كثيراً بأن يلبسه أفضل الثياب.. أنا واثقة أنك لست بحاجة لمن يذكرك بأنه كان يُعتبر لقطةً رائعةً.. حتى بعد أن يتزوج سيكون هناك الكثيرات من الشابات حوله اللواتي يسعين إلى لفت نظره.

جعلها هذا التحذير الجريء تبتسم.. لو كان هذا زواجاً عادياً فلربما اهتمت بتلك النسوة المتصيّدات لكنهن في هذه اللحظات آخر ما يقلقها.

ـ وما سيحدث أنك ستواجهين العديد منهن ليلة الغد.. لا أستطيع أن لا أدعوهن، فنحن نعرفهن منذ كن أطفالاً، وأهلهن من قبل ذلك بكثير.

كانت ليلة الغد حفلة الخطوبة.. كان من المفترض أن تكون مناسبة صغيرة، لكن يبدو أن السيدة غرايزر لم تكن قادرةً على الحد من العدد.. وكان يجب أن ترتاع ناتالي لفكرة مقابلة هذا العدد الكبير من الأقرباء والمعارف، لكن القوقعة التي غلفت

نفسها بها عزلتها عن مثل هذا الخوف.

وكان هذا أمراً جيداً لها.. فأول من وصل إلى منزل العائلة الكبير والقديم، كان أونا درايز.. وجذبت بعد أن ابتسمت بأقل قدر من الكياسة لناتالي، رأس تشاد إليها تعانقه مهنئةً بحماسة، ثم قالت تنظر بسرعة إلى ناتالي:

- حبيبي.. أنت متعب.. أو قلق.. أيزعجك شيء؟

ضحك في وجهها:

- لا شيء من هذا أونا.. أحسني التصرف الآن.. أو ستظن ناتالي أن لا أخلاق لك.

ردّت بإثارة واستفزاز:

- أنا لم أدع القلق حول أخلاقي يقف يوماً في طريقي.

وابتعدت عنه متمايلة، وتمتم تشاد في أذن ناتالي:

- تظاهري على الأقل بالغيرة. إنها تراقبنا من زاوية عينها.

- حسناً.. لقد حاولت جهدها بكل تأكيد.. أترغب في أن أتعلق بذراعك وأنظر شزراً لكل امرأة تحت الأربعين تقترب منك؟ آسفة.

- كاذبة.. أنت لا تهتمين بتمثيل أونا، لأنك تعرفين مسبقاً بأنني لا أهتم بها أو بأي امرأة أخرى.

وقفا للحظات متواجهين ضائعين في دائرة من مشاعرهما المتبادلة، وجه مستغرق فوق وجه مستغرق أكثر، وكأنهما ضمن دائرة سحر قوية. إلى أن قَدُمت السيدة غرايزر، أنيقة بفستان ليلكي، لتقطع الصمت.. ثم وصلت ابنة دانيال آنا وزوجها.. هو قلق، وهي بتعابير غير راضية تعكّر وجهها الجميل. وهما يبتسمان

ويتظاهران، كانا يعيان اهتمام الضيوف الآخرين، فالكل يعرف بأن دانيال ويستر قبل موته، كان دائماً برفقة ناتالي.

لكن آنا كانت على أفضل خلق، وكذلك ريتشارد شقيقها، حين وصل بعد قليل.. واستقبل تشاد الموقف بكياسة.

يا لنا من كاذبين.. فكرت ناتالي بعد ساعات: كنا جميعاً مختبئين وراء أقنعتنا، نكبت ما في أنفسنا بدهاء، بانزلاقنا قليلاً إلى النسيان.

كانت فيما مضى تحلم بحب لطيفٍ ورقيقٍ يراعي أحاسيسها.. وما حصلت عليه لم يكن حباً، ولا لطيفاً أو رقيقاً.. مع ذلك، فما على تشاد سوى أن ينظر إليها لترتجف.. ما تحس به نحوه كان حباً.. أما هو فهو لا يحبها، ولو أنه يحبها لما استخدم إخلاصها لأمها ليجبرها على هذا.

قال يعلّق بهدوء:

- أنت صامتة جداً، سيظن ضيوفنا أننا تخاصمنا.

وكانا فعلاً تحت المراقبة:

- إذن فهم مخطئون.

- أتظنين هذا؟ نحن لم نتخاصم يوماً.. كل مشاجراتنا كانت كقتال المحترفين المتفق عليه سلفاً.. والنصر أمرٌ مسلم به.

قالت بمرارةٍ:

- حسناً.. لقد انتصرت.

- وهل انتصرت؟ لا.. لقد خسرت.. والنصر النهائي لك.

- غير صحيح.. فأنت حصلت على ما تريد.

رد ببرودةٍ:

ـ بل حصلت على إذعانك المزدري الرافض.. على أي حال، هذا ليس وقت البحث في هذا.

صفّر أحدهم وتعالى الهتاف والتصفيق، ردّ عليها تشاد بثقته المعروفة بالنفس والتي تجدها ناتالي مثيرة للتوتر.. وقالت تبتسم له، تنظر إلى وجهه المتعجرف:

ـ أكرهك.

ـ أعرف، ويا للأسف.. فأنا معجب بك.. مع ذلك فهذا لا شيء، لأن ما يجمعنا معاً شيء لا نستطيع كبحه أو السيطرة عليه، بمجرد إعجاب أو كراهية.

قالت بسخرية:

ـ تعني الرغبة!

ـ بالضبط.

تظاهرت بالابتسام، محدّقة في لهيب عينيه:

ـ لكنت تزوجت فتاة لطيفة من أصل رفيع، لا تهدّد صفاء بالك، ولأعطيتها أطفالاً، ولكنت مسيطراً تماماً على حياتك وسعادتك.

لقد أصابت وتراً حساساً فيه.. لكن وجهه لم يتغير. كان يبدو مبتسماً بحب بالنسبة لأونا التي تراقبهما عن كثب، وهو ينظر إلى ناتالي.. وشدها حتى استندت إليه:

ـ أتظنين أنك أكثر سعادة بالحياة الرتيبة التي كان يمكن أن تختاريها مع رجل آخر؟ بإمكاني أن أعطيك أكثر من مجرد السعادة بكثير ناتالي.

أغوى صوته الجميل أذنيها.. صحيح أنه من الصعب

المقاومة، لكنها قاومته وحاولت جعل كلماتها هادئة وهي ترد:

ـ الاختيار هو الأساس.. فما من أحد يستطيع توقع السعادة أو اختيارها.. إنها حصيلة جانبية.. لكن يجب أن يكون لنا الحق باتخاذ القرار.. إذ ليس من العدل ولا يحق لك أن تنتزع هذا الخيار مني.

ـ وهل تظنين أن لديّ بديل عن هذا؟

نفذت الكلمات المريرة إلى دماغ ناتالي.. ودخلت روحها.. لكنها ردّت بعناد:

ـ يبقى هناك دائماً خيار.

فجأة ضحك، رامياً رأسه إلى الوراء، وكأنها تسلية. وحدها تستطيع استشفاف السخرية في ضحكته، وفي كلماته التي تلت:

ـ هنا حبيبتي، يا أعز الناس، يا قلبي، أنت مخطئة، هذا ما تفعله المشاعر بنا، تتلاعب بمزاجها مع الجميع حتى لا يعود لنا خيار.. لكنه مزاجٌ مريرٌ، مزاج قاس يترك المرء دون إرادة. تقولين إنك تكرهينني ناتالي، ولا يمكنك كراهيتي أكثر مما أكرهك أنا..

انكمش قلبها عذاباً، إنه يتعذب، وألمه يدفعه إلى مهاجمتها.. لو أنه فقط يتعلم كيف يحبها.. لكن ما من جدوى من البكاء على الإطلال. ومن غير المجدي الأمل بأي شيء أكثر من التعاسة المريرة في هذه الحياة التي يجبرها عليها.. فهو يرى انجذابه إليها ضعفاً منه.. بل عيباً في بنية شخصيته، ويكرهها لأنها السبب في هذا الضعف.

قالت:

ـ أتمنى..

لكنها لا تعرف ما تتمنى، إذ لا مجال للوصول إلى حبه.. وأفلتت منها تنهيدة حادة، فرفع ذقنها ليقول لها بقسوة:

ـ لا تستمري في مظهر الأميرة الضائعة، وإلا سيظن الناس أنني ضربتك.

ـ أيهمك ما يظنه الناس؟

ردّ بهدوء:

ـ أبداً.. وإلا لما كنت سأتزوج المرأة التي يقتنع معظم الناس أنها كانت صديقة خالي.. صحيح؟

كان يمازحها وابتسمت له.. وطغت الموسيقى حولهما، وتركهما ما تبقى من المحتفلين غارقين في عالمهما الخاص.. الحب والرغبة، الإعجاب والاحترام لرجل كان لطيفاً مع خاله، ومع المرأة المسنة التي لوت كاحلها على الطريق.. وكان هناك كذلك الكراهية، الرفض والغضب البارد، إضافة إلى هذا الحنان الذي تشعر به ويخالج ضلوعها. لكن، ألا يرى بماذا يلزمهما معاً؟ حياة أساسها جوع مندفع من المحتمل جداً أن ينهار إلى الفراغ.

أم أن هذا هو ما يتوقعه؟ اعتراها برد مفاجيء وطغى على بشرتها ليبردها.. أكان يأمل أن يخبو هذا الشوق بحيث يستعيد احترامه لنفسه؟ وأحست مجدداً بذعرٍ باردٍ جعل قلبها يخفق بقسوة حتى احمرّت وجنتيها.. وفكرت بجنون: يجب أن أبتعد.. أخيراً رأت بوضوح معالم الدمار الذي يحضّره لها تحت قدميها.. وسيكون في النهاية أسوأ بكثير لو أن الرباط بينهما انقطع في

النهاية، ونظر إليها بغير اكتراث.. وفكرت بيأس وقنوط: أفضل أن أموت.. يا إلهي.. الأفضل أن أقتله ثم أقتل نفسي، بدلاً من اضطراري لمراقبته وهو يملّ مني، وأنظر إلى عينيه لأرى فيهما السأم والقرف.

لا! لا شك بأنني هستيرية في تفكيري هذا. لن أستطيع هذا.. ليس تشاد، ليس الرجل الذي أصبحت أحبه على كراهية مني.. رفعت عينيها الواسعتين، لتمعن في وجهه، تجفل لقوته ولعجرفة بنيته، ولعينيه الزرقاوين التي لا تعرف لهما قراراً. لم يقل شيئاً، بل ابتسم بهدوء وقسوة، يبدو كأنه يحس بيأسها ويتمتع به.

وأدركت ماذا يجب أن تفعل.

انتهت الحفلة حوالي الثالثة صباحاً.. وكانت السيدة غرايزر تتثاءب بشدة وهي تبتعد عن الباب، قائلة:

ـ كانت حفلة رائعة.. تبدين متعبة ناتالي.. كان يجب أن نرتّب أمر بقاءك هنا الليلة.

قبّل تشاد خدّ أمه:

ـ ليس المكان ببعيد. شكراً لك.

ـ على ماذا؟ أنا أحب الحفلات، وتعرف هذا، ولقد أحببت هذه الفرصة جداً.. لقد انتظرت طويلاً لأراك تقع في الحب! سأتصل بك صباحاً ناتالي.. عزيزتي.. وسنضع الخطط النهائية.. متى ستعودين إلى الجنوب؟

رد تشاد:

ـ الأربعاء القادم.. تعالي حبيبتي.. ستقعين إذا استمريت

بالوقوف.

كانت ذراعه قوية حولها ومطمئنة، وتمكنت من الابتسام له، ومن شكر أمه قبل أن يقودها إلى السيارة.

كانت المدينة ساكنة، ما من سيارة أخرى على الطريق. أمطرت السماء خلال المساء، وكان الإسفلت مبللاً بالماء.. أنوار الشارع تنير الرصيف الفارغ الأسود.. وحدقت ناتالي من خلال الزجاج الأمامي، تجمع شجاعتها لتبقى صامدة.

أوصلها إلى المنزل، وتمنى لها بعد أن تفحصه كالعادة ليلة سعيدة دون شيء يذكر سوى قبلة عابرة، مماثلة كتلك التي أعطاها لأمه، على خدها.

كانت متعبة ومرهقة جداً، إلى درجة لم تكن قادرة على الإحساس بالارتياح لتأجيلها قرارها، تسلقت السلم.. وقدماها تؤلمانها، وكذلك حنجرتها.. كان هناك تحت عظام صدرها مباشرة غصة قاسية ثقيلة، جعلت من المستحيل عليها أن تبتلع ريقها.

لكنها نامت وكأنها مخدرة.. ولم تبدأ الحراك والتأوه من بين أنفاسها إلا بعد بزوغ النهار بكثير.

* * *

www.Liilas.com
AmL

٩ ـ قلوب قلقة

أحست حين استيقظت بصداع رهيب، وبإحساس كارثة قادمة بقوة.. حتى أنها بعد أن أخرجت بيتسي في نزهتها الصباحية، كانت لا تزال متأثرة بذلك الإحساس. خف الصداع لكنها أحست بالبرد والارتجاف، وكأنها ستصاب بالأنفلونزا.

كانت مع وصول تشاد مكوّرة في مقعد بذراعين، تشرب الشاي بالنعناع.. وقال معلقاً وهو يمسكها بيديه:

ـ تبدين كالأموات.

تحركت عضلات عنقها الصغيرة وهي تبتلع ريقها بصعوبة. حين تمكنت أخيراً من الكلام بدا صوتها خشناً، ومنخفضاً.

ـ أنا.. تشاد، أنا لن أتزوجك.

جمد بقوة.. ثم اقترب حاجباه من بعضهما.. وقال بهدوء:

ـ لقد مررنا بكل هذا أيتها السخيفة.. هل بقيت طوال الليل ساهرة لتقوّي عزيمتك؟

كرّرت بثبات، مترنحة قليلاً: لن أتزوجك.

مدّ يده بسرعة ليثبتها، فأجفلت للمسته.. اشتدت أصابعه عليها بقوة، ثم استرخت. وقال بنعومة:

ـ بلى، ستتزوجينني عزيزتي.. أنت الآن متعبة، مرهقة..

ـ توقف عن معاملتي وكأنني مراهقة هستيرية.

كان في صوته العميق حدةٍ أو سخرية:

ـ أنت تتصرفين كواحدة...

ـ لا.. بل إنني أتصرف بتعقل أخيراً. وإذا لم تكن تريد أن تتقبل واقع أن الزواج بيننا سيكون كارثة، يجب عليّ أنا أن أكون متعقلة.. لن أدخل ميدان معركة وأنا أعرف أنني أنتظر الموت.

ابتسم واثقاً بنفسه:

ـ يا له من دماغ صغير عندك، يا حلوتي.. أعدك أنني لا أنوي قتلك.

قالت بجرأة، تتراجع عنه وهو يقترب منها:

ـ سيكون الزواج بك موتاً بطيئاً.

ـ كلامك سخيف، وتعرفين هذا.

كانت عيناه مركزتان على وجهها، وشاهدت وهي تدير رأسها عنه لهيباً مفاجئاً يشتعل في عمق عينيه الزرقاوين..

شهقت: لا!

لكنه ضحك وأمسكها بكتفيها، يضمها دون شفقة أو حنان.

حين أصبحت مثقلة العينين، ترتجف، أرخى ذراعيه عنها، وأرجع رأسه قليلاً إلى الوراء..

قال بصوت أجش، يمتزج مع النصر في صوته:

ـ أرأيت.. قولي لي الآن إنك لا تريدينني.

رفعت رموشها تنظر إليه، تستدعي احتياطي الشجاعة في نفسها:

ـ أنا لم أقل بأنني لا أريدك.. لكنني لن أتزوجك.

تركها يسأل:

ـ أخبريني لماذا؟

ـ لقد أخبرتك لماذا.. ما بيننا هو المشاعر الجسدية.. وهذه المشاعر تزول، ولا حاجة لأن أقول لك هذا. فماذا سيحدث لنا حين تكتفي مني؟ تقول إنك لن تطلقني، لكنني لن أعيش معك وأنا أعرف أنك تكرهني ولا تريدني. هل تظن أنني أهوى تعذيب نفسي؟

قال وغضبه يرتفع ليماثل غضبها:

ـ أظن أنك امرأة غبية.. أو ربما فتاة صغيرة غبية، وهو وصفٌ أفضل لك. هل فكرت ماذا ستفعلين بأمك إذا لم تتزوجينني؟

ـ لماذا لا ترد عليّ؟

راقبها من تحت رموشه مفكراً.. وعرفت أن افتراضها ليلة أمس صحيح.. فهو قادر على إصابة شخصيتها بضررٍ كبير بحيث لا يمكنها العودة إلى ما كانت عليه إطلاقاً.

قالت بشدة: لن أتزوجك.

جذبت الخاتم الذي اختاره لها من أصبعها، ومدّت يدها إليه ترتجف.

قال، دون أن يتحرك ليأخذ الخاتم:

ـ تعملين على مبدأ أن ما يقال ثلاث مرات هو صحيح.

ـ بل أعني ما أقول.

هز رأسه:

ـ أجل.. أرى أنك تعنين ما تقولين.. لكنني قادر على

جعلك تغيرين رأيك.

هزت رأسها بدورها:

- لا.. يمكنك الضغط عليّ.. لكنني لن أغير رأيي.

أخذ الخاتم منها، وأخذ يقلب الشيء الجميل في يده ورأسه محني.. ثم قال:

- حسن جداً إذن.. لا شيء بعد يقال.

ارتفعت يدا ناتالي إلى قلبها.. لقد توقّعت.. أوه.. توقّعت أن يضربها، يهدّدها، يتوعّدها بالشر.. لكن هذا القبول الهادىء أربكها.. وراقبته صامتة يسير عبر الغرفة نحو الباب، وجسده الرشيق متوتر.

قال بهدوء عند وصوله إلى الباب:

- لا داعي للقلق حول سرّ أمك.. فلا أنوي أن أقول شيئاً لزوجها.

امتلأت أذناها بضربات قلبها الراعدة، وأحست بالضربات تحت يدها، وكأنما قلبها يريد الانفلات من سجن اللحم والعظم.. وهذا ما منعها من سماع ما قاله لبيتسي، لكنها سمعته ينادي، وينادي ثانية، وكانت تركض نحوه حين سمعت صرير المكابح، وعواءها القصير.

صاح بها تشاد من فوق كتفه: إبقي هنا.

لكنها كانت خلفه حين وصل إلى السيارة وسائقها المرتجف المحتج.. وتوقفت قرب الكومة الصغيرة من الفرو التي كانت بيتسي، وقال السائق:

- أحمد الله أنني بالكاد كنت أتحرك.. لا يمكن أن تكون قد

ماتت بالتأكيد؟

لامست يدا تشاد الجسد الساكن، ثم قال بعد لحظة:

- لا.. إنها حية.. ربما ضلع مكسور أو ضلعين. هذا كل شيء.

وقف.. وأدركت ناتالي في لحظتها فقط أن الدموع تغرق وجهها.. وقال بلطف:

- حبيبتي، اذهبي واتصلي بهذا الرقم.. إنه رقم هاتف طبيبنا البيطري.. سأضعها في السيارة.

عادا بعد ساعتين إلى المنزل، وبيتسي هادئة بالرغم من إصابتها، لا تزال مسترخية بسبب المخدر الذي أعطي لها. وزوّدها البيطري بقفص وضعه تشاد لها في بقعة مشمسة قرب الباب.

قالت ناتالي مرتجفة:

- من الغباء التعلق هكذا بالحيوانات الأليفة.

- لماذا؟ إنها صغيرة محبوبة، ومليئة بالمرح.. هل يجب أن يكون المرء قاسي القلب جداً كي لا يشعر نحوها بشيء؟ أنت لست قاسية القلب ناتالي.

- حين سمعت السيارة فكرت: هذا كل شيء الآن! لم يعد لي شيء، كل شيء ذهب وانتهى.

قال تشاد بسهولة:

- أوه.. إنها سالمة.. لا تقلقي عليها.. سأصنع لك بعض القهوة.

وهذا ما أعطى ناتالي فرصة لاستعادة رباطة جأشها.. وهو

يتحرك في المطبخ الصغير، أخذت تراقبه وقلبها في عينيها.. وشربت القهوة وهي تستمع إلى رنة صوته.. كان يعاملها بأفضل طريقة، يخفف عنها صدمتها بحديثه الهادىء.

قالت له بامتنان بعد أن أتمت القهوة تأثيرها المهدىء.

ـ أنت تمتلك مهارة في معاملة الناس.

زادت ابتسامته الكسولة على تعابيره نعومة غير متوقعة.

ـ هذا من ضمن تدريبات كلية الحقوق ناتالي.. ما الذي دفعك لرفضي هذا الصباح؟

ـ لن أستطيع تحمّل العيش معك وأنا أرى أن ما تشعر به نحوي يتحول إلى عدم اكتراث بل إلى كراهية.

ـ ولماذا يحدث هذا؟

ـ أليس هذا ما يحدث عادة؟ أنت بحاجة للحب، بكرم ودون أنانية، لتعيش سعيداً إلى الأبد.. مع ذلك أحياناً لا ينجح الزواج.

سألها بنعومة:

ـ هكذا إذن؟ ألم تعرفي بعد أيتها الأرنبة الصغيرة السخيفة أنني أحبك؟ أحبك بيأس لا أستطيع الصبر معه؟ وأظنني كنت هكذا منذ أول مرة رأيتك فيها تقريباً؟

حدقت ناتالي به مذهولة، عيناها متسعتان من الصدمة.. ثم قالت وكأنها فاقدة الحس:

ـ لا أصدقك.

هز كتفيه:

ـ أجد صعوبة في تصديق نفسي.. لكنها الحقيقة.

أبعدت نظرها عن عينيه المشتعلتين، لتضم يديها في حجرها

بشدة، ولتوقف الارتجاف الذي كان يجتاحها..

ـ لا.. ليس منذ البداية.. فقد كنت تظنني فاسقة، وقلت لي هذا.

كشّر:

ـ لو كنت أذكر جيداً، فأنا قلت لك إنك فاسقة صغيرة جميلة.. ولو لم أقع في حبك، فلماذا لم أتركك وأبتعد؟ لأنني لم أستطع. أردتك أكثر من إرادتي أن آكل أو أنام أو أتنفس.

رفعت عينيها لتنظر إليه:

ـ لماذا؟ أعني ما أقول تشاد، أنا لست من صنفك المعتاد من النساء.. فلماذا تحبني؟

اقترب ليجلس قربها:

ـ ربما السبب هو أنك لست من النوع المعتاد.. لقد التقيت بأونا، وهي صنفي المعتاد.. جميلة، ذكية جداً، قوية الإرادة بحيث أن علاقتنا لن تترك أي أثر في قلبي، ومرغوبة جداً.

أحست ناتالي بغيرة شرسة جعلتها تغمض عينيها.. فابتسم:

ـ أعرف لماذا أحبك.. لكنني لا أعرف إطلاقاً لماذا تحركينني بقسوة.. لا أعرف السبب.. أهو التجاذب الكيمائي؟ التناغم؟ كل ما أعرفه أنني حين رأيتك أول مرة، تجلسين إلى جانب دانيال، والشمس تلتمع في تجاعيد شعرك.. أحسست بخفة استسلام.. وكأنك لي. وكأننا كنا زمناً لبعضنا، ثم تفرقنا، والتقينا مجدداً بعد دهور من التفتيش.

كان يتكلم بفتنة.. تسحر كلماته المغوية قلبها ومخيلتها، ولم تعد تتحمل قربه منها.. اعترافه بحبها لم يكن متوقعاً حتى

أنها لم تستطع حتى الآن تقبله، فوقفت على قدميها قائلة:

- لكن هذا لم يكن.. لقد كنت قذراً تماماً معي.

- هذا طبيعي.. كان واضحاً لي أنك متورطة مع دانيال. ولم أصدق أن علاقتكما جسدية، لكن لم أجد تفسيراً آخر.. فقد كان الرباط بينكما قوياً جداً.. وكانت الغيرة تنهشني بوحشية.. وكرهت أن أكون قربك.

- مع ذلك كنت تأتي لرؤية دانيال.

- كانت تلك الأمسيات بعد أن وقعت في حبك.. كنت جريئة، مستقلة، وذكية، وأردت كل هذا.. حنانك ولطفك، وكل شيء فيك. كنت تبتسمين لدانيال.. وكنت أنا على استعداد أن أجثو على ركبتي في سبيل ابتسامة مماثلة لي.

قالت من بين أنفاسها:

- لو كنت أعلم.. لكنت وقعت في حبك منذ ذلك الوقت أيضاً.. لكنني لم أتعرف على ما تشعر به.

- إذن لماذا رفضتِ الزواج مني؟

ابتسمت:

- لأن إحساسك بالذنب هو الذي دفعك إلى طلب يدي! أردت.. أردت أكثر من هذا بكثير منك.. أردتك أنت، وليس فقط سعادة ما تعطيني.. أنا جشعة.. وإذا لم أستطع أن أحصل عليك دون شروط أو حواجز فلا أريدك..

ساد صمت طويل، وبدا أن تشاد يفكر بكلماتها، يبحث عما فيها من معاني. حين رفع رأسه، كانت عيناه مليئتان بالمرح.

- هل أقول لك ما أشعر به نحوك؟

- إذا أردت هذا.

ضحك ضحكة غريبة وكأنّ ردّها جرحه. ثم قال بخشونة:

- أستطيع أن أتعامل بالكلمات بأفضل طريقة.. لكن حين أحاول تصور حياتي دونك يلتصق لساني بسقف حلقي.. ولو تركتني..

توقف ليبتلع ريقه بصعوبةٍ.. أمر لا يصدق.. وكانت عيناه مثبتتان على الأرض:

- أرعبتني الفكرة ولم أجرؤ على تصورها.. من المستحيل عليّ تصور أي نوع من الوجود دونك.

تحركت ناتالي بقلقٍ، كان صعباً عليها أن تصدق أن تشاد الساخر، المحنك، هو الذي يتحدث باكتئاب شديد. وتملكها الفرح لكن ليحل مكانه على الفور خوف شديد.. لكنه أكمل:

- يا أعز ما في قلبي، كيف يمكن لي أن أقنعك؟ لقد تصرفت معكِ كمتوحشٍ، أُرهبك لأنني كنت أغارُ مما كنتِ تشاركينه دانيال، بجرأة وشراسة.. ألا يمكن أن تصدّقي أن قوة مشاعري هي الدليل على السلطة التي لك عليها؟

- لكن.. ما إن اكتشفت من أنا، حتى لم يعد لك سبيل للغيرة.

تنهد، ينحني إلى الأمام، يمدّ يده ليمسك يدها ويشدها إلى جانبه.

- كان كل حبك وابتساماتك، واهتمامك، لدانيال. وأردتك لنفسي.. ألديك فكرة عما تفعله الغيرة؟

- قليلاً.

- أنا مسرور لهذا.. هذا يجعل منا على الأقل اثنان يعانيان منها. بالنسبة لي كانت أول مرة.. فأنا لم أهتم بامرأة إلى درجة أن يزعجني أن لا يكون اهتمامها كله لي.

استدار ليضع ذراعه حول كتفيها:

- كان هذا نوع من العبودية المريرة، عبودية لمشاعري.. واضطررت لمتابعة زيارة دانيال لأنها الطريقة الوحيدة لأراك. لكن يا إلهي كم حسدته على ترابطه معك، كرهت نفسي، لكنني كرهتك أيضاً.. لقد وَهُنَتْ إرادتي، وأظنني جننت لفترة ما.

تنفست بارتياع وبحدة.. حذرها الإذلال الفج في صوته أنه بالرغم من كل حبه لها، لا يزال يرى مشاعره كنوعٍ من الضعف.. ستكتشف السبب في يوم ما، حين يستطيع أن يتحمل القول لها، أما الآن فهي لا تريد سوى التخفيف عنه. صمت بخجلٍ، يده بين يديها الصغيرتين تشدّ بقوةٍ على الأصابع النحيلة.. وقالت:

- أنا آسفة.. بالرغم من كل شيء كنت لطيفاً معي.. لقد كنت في مزاج خطير، حتى كان بإمكانك قتلي.

قال باكتئاب:

- ليس تماماً.. فلم أكن أريد موتك.. بل كانت مشاعري مزيجاً من الحقد والرغبة.

- أهذا ما كنت تعنيه بقولك ان هناك سببٌ لكل شيء مهما كان رهيباً؟ تذكر أنك جعلتني أعترف بأنني، وفي ظروف محددة، يمكن أن أقتل؟

- أعتقد هذا بطريقة ما، ما عدا أنني كذّبت أوهامي، بتصوّر أنك تحت رحمتي تماماً، كنت أتظاهر أنني سأسلب قلبك بغزلي،

ثم أتركك تتوسلين إليّ جاثية على قدميّ. لكن، طوال الوقت، كنت أعرف أنني لن أمتلك القوة لأبتعد عنك.. وأنني بدلاً من تركك، سأعطيك حياتي وشرفي وقلبي.

جلست ناتالي جامدة، متوقفة الأنفاس.. أدارت ببطء رأسها، ترجعه إلى الوراء لتركز نظرها على وجهه.. :

- يا إلهي! أنا آسفة.. آسفة..

قال بهدوء:

- لماذا يجب أن تكوني آسفة؟ هذه ليست غلطتك.

- لقد أسأت الحكم عليك كثيراً.. لم أكن أعرف.. لم أكن أدرك..

- أعرف.. وأعرف أنك لو عرفت يومها لكنت أكثر خوفاً مني مما كنت.

أطرقت:

- بدوت لي محنكاً وأكثر خبرة من أن تعاني من أي نوع من المشاعر المعذبة التي كانت تمزّقني..

انخفضت رموشه تخفي عينيه. وقال:

- أظنني كنت في الخامسة عشرة من عمري حين أدركت أن والدي لم يكن مخلصاً لأمي.. وجدتها يوماً تبكي.. واخترعت عذراً لكنني عرفت أنها كانت تكذب. وسمعت بعد بضعة أيام اثنين من أصدقاء أبي يتحدثان.. وعرفت أنه لا يستطيع مقاومة أي وجه جميل.. حين كبرت، اكتشفت أنه كان بين حين وآخر ينزلق، وهذا ما جعل أمي تعيسة.

أخيراً فهمت:

- فهمت..

- ولأنني كنت صغيراً صارحته بأمرهن.. قال إنهن لا يعنين شيئاً له.. كان يكلمني كرجل لرجل.. ولأكون صادقاً، صدّقت أنهن لا يعنين شيئاً له. كان يحبّ أمي بقدر ما يستطيع، وكان يؤمن أن الرجال يعبثون بطبيعتهم.

سألته بغضب:

- وهل تؤمن أنت بهذا؟

ضحك، وهمس:

- لا.. لا.. ما أردت سوى امرأة واحدة.. فمنذ التقيتك ولم يكن هناك سواك.

أزهر وجهها بالثقة، مما جعله يتنفس بحدة، وقالت:

- جيد.. أخبرني كل شيء عن والدك.

- أعتقد أنك تستطيعين أن تخمّني.. لقد لمته لأنه لا يملك السيطرة على النفس ليكبح نفسه.. كان حسب طريقته الخاصة شريفاً.. وكان يصرّ على أن لا وجود لسيد محترم يغوي بريئة.. لذا بإمكانك فهم سبب شعوري بالكراهية حين رأيتك مع دانيال.

تنهدت:

- أجل.

- ثم هاجمتك ولم أقصد أن أتحرش بك.. ظننت، بالرغم من انجذابي إليك، أن لدي القوة لأن أتركك. هكذا اضطررت لمواجهة واقع أنني لست أفضل من أبي.. قوي الإرادة، كابح لنفسي، مسيطر، وكل الأسس التي بنيت عليها حياتي قد طارت ولم تعد لها قيمة. فيما بعد أدركت خطأي، وأنا من نظر

إليك على أنك فاسقة.

كانت الشمس قد بدأت تأفل، والجو تحول إلى البرود والظلمة النسبية.. عما قريب ستنار كل الأضواء، وسيأتي في الشهر القادم فصل الربيع..

سألت ناتالي:

- لماذا قلت لي إنني يجب أن أتزوجك؟

- قلت لنفسي إن هذا من واجبي لتصحيح تصرفي معك، لأنني لن أعترف ولا أستطيع أن أعترف أنني لا أريد مواجهة الحياة من دونك.. ولم يخطر ببالي أبداً أنك قد ترفضينني.

رفعت يدها تداعب فكه، واشتدت تحت أصبعها بشرته الطرية.

- لم أستطع أن أقبل.. فكرت، وكنت واثقة، أنك لن تحبني. وخفت.. فكرت أنني سأجن لو علقت في زواج تفرضه فرضاً عليّ.. كنت تبدو وكأنك تكرهني ومع ذلك تريدني.. كنت مشلولة التفكير.

التقت عيناها عينيه دون وجل.. أدركت أن المشاعر الجسدية لوحدها لم يكن لها قيمة.. وهذا هو الأهم، هذا التواصل، هذا اللقاء للأفكار والقلب.. ابتسمت لعينيه بخجل، ومشاعرها شفافة، ورأت فيهما حناناً متجاوباً، كاد يسدّ أنفاسها.

قال بارتجاف:

- يا إلهي كم أحبك.. لم أفكر يوماً.. لم أكن أعرف أنني قادر على الحب هكذا.. من قبل كان الأمر مجرد رغبة وإعجاب، وكنت أنا دائماً المسيطر. لم أكن أؤمن بالحب الذي يتشدق

الشعراء به..

ضحك، ووقف ليذرع الغرفة مجيئاً وإياباً، ولحقت عيناها به، وراقبت من بين جفنيها تحرك عضلاته وهو يسير، استقامة كتفيه العريضين فوق خصره الضيق، وأحست بمشاعر قوية كادت تغرقها.

كيف يمكنه أن يفعل هذا بها؟ لم يكن السبب هو جسده، ولا جاذبية ملامحه.. حتى السحر الذي يستخدمه كسلاح، لم يفسر السبب.. لا شك أنه الوعد غير المتحفظ الذي تحسّه فيه كل امرأة دون كلمات.

وقد اختارها هي من بين كل النساء.. والتمعت شرارات الحب والثقة في عينيها، لتخفي القلق من وجهها.

نظر إليها يردد بهدوء:

- أجل.. لم أستطع أن أصدق بأن سعادتي تعتمد على فتاة ليست جميلة بما يكفي، ولا ذكية.. لقد استحوذت عليّ بكل كيانك، ووجدت نفسي أفكر بك مرات ومرات، أخطط لطرق أسعدك بها.. إذا كان لدي فرصة أخرى.

استدار ينظر إليها، متعالياً محتقراً كما كان أول مرة:

- لقد وقفت بيني وبين عملي.. لاحقتني، خفّضت قيمة نفسي أمام عيني. ابتعدت، لكن التفكير بك كان يتآكل ثقتي بنفسي، مع ذلك، لم أعترف أنني أحبك، كانت الطريقة الوحيدة لاستبقاء بعض الكرامة هي أن أقول لنفسي، إنك ستتزوجيني، وإنني متى حصلت على هذا، سأشبع نفسي منك إلى أن لا تعودي بالنسبة لي سوى امرأة أخرى حصلت عليها.

كانت إذن محقة ليلة أمس.. لكن الأمر لم يعد مهمّاً الآن..

وقالت بهدوء:

- متوحش.

التوى فمه بابتسامة:

- أوه.. أجل.. كنت خائفاً خلف كل هذا، لهذا كنت الاحقك لتخرجي معي.. كنت أتعمد العبث معك، وأخذك إلى أماكن عدة حتى أرى كيف تتصرفين. وسرني أن أشهد بأن لك الوقار الكافي لتمري بأي وضع كان. وقررت أنك قادرة أن تكوني زوجة مناسبة لي.. وكان من الواضح أنك لم تكوني دون اكتراث بي.. حاولتِ إخفاء هذا، لكنك لم تنجحي.

ابتسم ساخراً لوجهها المصدوم:

- ثم، رفضتِ طلبي للزواج بك.. هكذا رفست قلبي، وابتسمت وأنت تفعلين هذا.. ولم يخفف ألمي سوى معرفتي بأنني أستحق هذا.

- كم كنا سخيفين.. كلانا. ألا تعلم أنني كنت أفضل أن أقتل نفسي؟ كنت أظن أن الكراهية والرغبة هي التي تربطنا.. لكن، كان يجب أن أعرف أن الحب وحده هو الرابط القوي بيننا.

تقدم نحوها:

- ناتالي.. يا فرحي العزيز، يا قلبي.

والتقيا، تعانقا، كحبيبين حرما من بعضهما لزمن طويل..

ورفع أخيراً رأسه هامساً:

- الحقيقة التي كانت تختبىء خلف كل تصرفاتي فقط أنني أحبك.

مدّد نفسه قربها على الصوفا.. وكرر بهدوء:

ـ مجرد أنني أحبك.. بعد أن تقبلت هذا، لم يعد يهمني شيء، سوى أن تبادليني الحب.

ـ أوه.. أبادلك الحب.. لكنك تعرف هذا.

ـ آمل هذا.. والله وحده يعرف لماذا..

ـ لأنني أحب تعذيب نفسي، طبعاً، وأريد أن أكون لك.

ـ أتمنى أن أجعلك سعيدة طيلة السنوات التي نبقى فيها معاً.

ـ أوه.. أعرف أنك ستتمكن من هذا.. بمجرد أن تكون قربي.. هذا كل ما أريده.

وأكملت تسأل:

ـ تشاد.. لماذا قرر ولدا دانيال أن لا يطعنا بالوصية؟

ـ لأنني أقنعتهما بأن لا يفعلا هذا.

ـ كيف.. ولماذا؟

ـ كيف؟ لقد أشرت إلى أن الطعن بالوصية سيؤخر توزيع الحصص، وبما أنهما كانا بأمس الحاجة إلى المال، اضطرا إلى الإذعان.. أما السبب.. فهو أنني أردت أن أعتني بك شخصياً.. كرهت التفكير في أن تستمري بالكفاح من أجل مرتبٍ صغير، واضطرارك إلى عمل إضافي.. ولم أكن أدرك أنك مصممة مبتكرة، وقادرة على إعالة نفسك جيداً دون مساعدة. فيما بعد، حين أدركت قدراتك وعرفت من أنت أحسست بالسرور.. وأخبرت آنا وريتشارد.

تأوهت آهة دهشة، لكنه أكمل:

ـ قلت لهما كذلك بأنه لو علم أحد غيرهما من أنت،

فسأتأكد بنفسي أن تحصلي على حصة متساوية من الأملاك كابنة لدانيال.. وبقيا صامتين لأن الطمع هو خطيئتهما الكبرى.

ـ أمر غريب.. إنهما أخواي من أبي.. مع ذلك لا شيء مشترك بيننا.. حتى أنني لا أحبهما كثيراً.

ـ لن تربهما كثيراً، وحين يحصل هذا سيتصرّفان معك بأدبٍ.

وكان يعني ما يقول.. للحظات عاد ليكون تشاد غرايزر الذي التقته أول مرة، قاسٍ، لا رحمة في قلبه، بتعابيره المتجهمة.. ثم ابتسم لها:

ـ لا تقلقي.. لقد أسعدتِ دانيال كثيراً قبل أن يموت. تذكري هذا فقط..

* * *

كانت الخطة أن يكون الزفاف حفلاً صغيراً.. لكن الحال كان عكس ذلك في الضاحية الريفية، إذ لا يوجد ما يُسمى بحفل الزفاف الصغير. جرى في النهاية الزواج بحضور كل أصدقاء ناتالي وجيرانها، وعدد مذهل من أقارب تشاد وأصدقائه.

قالت ناتالي تمازحه:

ـ أنا واثقة أن الحفلة تؤكد على رأي أصدقائك بأنك جننت.

كانا في غرفة جلوس «شاليه» سبق أن استعاره تشاد من أصدقاء له.. وتقدم نحوها يدسّ ذراعيه حولها:

ـ لم أشاهد هذا في وجوههم.. ربما الحسد، هذا ما رأيته بالتأكيد.. ما من رجل في حفل التهنئة إلا وتمنى لو كان مكاني.

ـ حتى باتريك انغرام؟

ـ آه.. لكنه مفتون بباولين.

- كان لطيفاً أن نراهما معاً.

- بالكاد لاحظت وجودهما.

كان الشاليه مطلاً على «كوينزتاون» الجميلة، وعلى الجبال المغطاة بالثلج عبر مياه بحيرة «واكتيبو» العميقة.. وليس ببعيد كان هناك ميدان تزلج حيث يمكن أن يتزلجا يوماً خلال إقامتهما لأسبوعين هناك.

لامست ابتسامة بطيئة خفية شفتي ناتالي.. وأسندت رأسها إلى الوراء على كتف تشاد، تتمتم:

- كم أنت قوي، وأهلٌ للثقة، ودافىء. صوت قلبك هو الأكثر هدوءاً من كل الأصوات التي سمعتها في حياتي.. لو كان لي خبرة أكبر، لعرفت من دقات قلبك ومنذ زمن طويل، أنني أحبك.

بدا متسلياً، إنما غاضباً قليلاً:

- أوه.. لست أدري.. كنت غافلاً أكثر منك، والسماء تعرف ذلك، رغم أن خبرتي كانت كافية..

- لكن ليس في الحب.

تمتم في شعرها:

- لا.. ليس في الحب.. أتعلمين بأن زوج أمك حذّرني ليلة أمس لأعتني بك؟

- لا!

- بلى.. قال إنه لم يرك بمثل هذه السعادة من قبل، ولا يريد أن يختفي بريقها من عينيك.. وأظن أن سمعتي كزير نساء قد وصلته.

- أوه.. ماذا قلت؟

ضحك بنعومة:

- أوه.. أظنني استطعت أن أقنعه، مهما كانت حياتي قبل أن ألتقيك، من الآن وصاعداً، كل ما أريده هو أن أتمكن من إسعادك.

رفعت يدها إلى وجهه، تضمها بمحبة إلى خده.

- إنها مسؤولية ضخمة، أليس كذلك؟

- صحيح، حقاً. ماذا كنت تناقشين مع أمك قبل أن نرحل؟

صمتت لحظات، ثم قالت بهدوء:

- كانت تشرح لي قبل عودتي إلى المنزل بأنها صارحت زوجها وكشفت له عن سرها مع دانيال.

- و..؟

- كان يعرف طوال الوقت، وانتظرها أن تصارحه طوال تلك السنين.. لطالما ظننتُ أنه كان متصلباً جداً، قاسياً وضيق التفكير.. لكنني كنت مخطئة.. لا شك أنه يحبها كثيراً لينتظر طويلاً أن تفضي إليه بسرها.

تأثر تشاد:

- بالطبع يحبها.. ولقد وجد نفسه من خلالي.. عرف أنني مثله.. رجل لا يحب سوى مرة واحدة، بالكامل، دون تحفظات أو شروط.

قطبت ناتالي:

- كما أحبك.. لكن، لو كان يعرف هذا حبيبي، فلماذا يحذّرك؟

ـ لأننا نميل سوياً إلى السيطرة.. ونجد من الصعب أن نشارك أحداً، ونكره الابتسامات التي كنت تطلقينها نحو أصدقائك القُدامى اليوم.

أرجعت رأسها مجفلة، فسألها:

ـ وهل ظننت أنني لم أعرف من هم؟ أنا أغار من أي شيء أحببته، أو قضيت وقتاً معه.. وهذا ما حذّرني ديسموند منه.. أريد أن أمتلكك بالكامل، أريد كل أحاسيسك.. أن يتركز وجودك على إسعادي أنا وحدي وأن أبادلك نفس الأحاسيس. لقد سبق أن قلت لي مرة بأنني أخنقك.. وأنا قادرٌ على هذا بسهولة.

نظرت ناتالي إليه تحسّ بمدى المسؤولية التي يلزمها حبها له، وأحست للحظة أنها مسحوقة بهذه المسؤولية ثم نظرت إلى عمق العينين الزرقاوين ورأت فيهما السؤال، وأدركت بأنها قوية بما يكفي.

فقالت بهدوء:

ـ لا.. لا تستطيع هذا.. كل ما عليك أن تفعله هو أن تتذكر أنني كنت أحبك في الوقت الذي كنت فيه تتصرف معي برعونة وعجرفة. وأنك كنت صعب المراس، مسيطراً، أكثر مما يمكنك أن تكون.. أحبك أكثر من أي شيء.. أحبك لأنك قوي، لطيف، وتراعي مشاعري. ولقد عرفت منذ رأيتك لأول مرة أنك رجل أستطيع أن أخسر قلبي لأجله.. لماذا تظن أنني كنت متصلبة ومتوترة إذن؟

ابتسم:

ـ أظن أنك كنت تخافين أشياء أخرى.

ـ لا.. لا.. كان الأمر أكثر من هذا.. لأنك كنت تهتم كثيراً بدانيال..

همس:

ـ لا تتكلمي.. لقد فات وقت الكلام.. يكفيني أنك تحبينني.

أحست ناتالي بعرفان عميق للجميل.. لم يعد هناك مجال للتراجع عن شيء الآن.. إنه يكشف أعماق نفسه لها.. واثق أخيراً بأنها لن ترفضه أو تسيء استخدام سلطتها عليه.. كما تعرف تماماً أنه لن يفعل هذا بها.. لقد وصلا أخيراً إلى بيتهما، وبيتهما هو بعضهما.

* * *

www.liilas.com